الطب الروحانى

للإمام ابن الجوزى

تخريج وتعليق

محمد سعيد

مكتبة الإيمان
المنصورة ـ أمام جامعة الأزهر
ت: ٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

الطبعة الأولى

مكتبة الإيمان
المنصورة ـ أمام جامعة الأزهر
ت: ٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

تقديم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً ﷺ عبده ورسوله .

وبعد :

﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾(آل عمران : ١٠٢)

﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة،وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيرا ونساء، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إنَّ الله كان عليكم رقيبا ﴾ (النساء : ١)

﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما ﴾ (الأحزاب ٧٠ - ٧١)

ثم أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ،وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار .

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون. ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون. لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾.

عملنا فى الكتاب

١ - مراجعة الكتاب لغوياً .

٢ - ضبط النص .

٣ - تخريج الآيات القرآنية

٤- تخريج الأحاديث النبوية مع ذكر درجة الحديث .

٥ - شرح الكلمات الغامضة فى معناها .

٦- قمت بوضع العناوين الداخلية المناسبة .

٧ - عمل مقدمة للمؤلف رحمه الله تعالى وللكتاب .

وأخيراً : الحمد لله علي التعليم حمداً يوجب المزيد من التقويم والصلاة الكاملة والتسليم علي محمد النبي الكريم ، المبعوث بالهدي الصراط القويم ، المقدم علي الخليل وعلي الكليم : ﴿ **عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم** ﴾ وصلي الله عليه وعلي آله وأصحابه وأتباعه إلي يوم ظهور الهول العظيم : ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾ أيقطنا الله وإياكم قبل ذلك الحين ، لأخذ العدة وثبت أقدامنا إذا زعزعت الأقدام الشدة ، ورزقنا قولاً وفعلا قبل انقضاء المدة وختم صحائفنا بالعفو قبل جفوف قلم الأجل وانتهاء المدة ، وبيض وجوهنا بالصدق يوم نري الذين كذبوا علي الله وجوههم مسودة و اجعله خالصاً لوجهك وتقبله واغفر لى ولوالدى وللمسلمين يوم القيامة آمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

تخريج وتعليق / محمد سعيد

ترجمة المؤلف

اسمه :

هو أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على بن عبيد الله بن عبد الله بن حمادى بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزى ، التيمى ، البكرى، البغدادى .

نسبه:

وهو عربى قرشى ، يتصل نسبه بأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فلقد ذكر أهل السير أن جده جعفر بن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله ابن الفقيه عبد الرحمن بن القاسم بن محمد ابن خليفة رسول الله ﷺ أبى بكر الصديق .

بيئته ونشأته:

توفى أبوه وعنده ثلاث سنوات فربته أمه وعمته .

ولما ترعرع سمع من ابن ناصر البغداى خاله وعنده سبع سنين.

ولم يرحل للحديث فكان عنده وحفظ وهو صغير الكتب الستة وتاريخ الخطيب وابن سعد والحلية .

ولقد سمع من الكثير من مشايخ عصره .

شيوخه:

ومن شيوخه : الشيخ موفق الدين ابن قدامة .

والضياء المقدسى ، وأمم سواهم .

أخلاقه:

قال سبطه أبو المظفر :

«كان زاهداً فى الدنيا، متقللاً منها، ولم يأكل من جهة لا يتيقن حلها» .

ثناء العلماء عليه:

قال الحافظ الذهبى رحمه الله تعالى :

كان رأساً فى التذكير بلا مدافعة، يقول النظم الرائق، والنثر الفائق بديهاً، ويسهب، ويعجب، ويطرب، ويطنب، لم يأت قبله ، ولا بعده مثله .

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى :

« أحد أفراد العلماء ، برز فى علوم كثيرة ، وانفرد بها عن غيره ، وتفرد بفن الوعظ الذى لم يسبق إليه ، ولا يلحق شأوه فيه» .

مآخذ العلماء عليه:

«كل يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذ القبر » قالها الإمام مالك ويقصد الرسول ﷺ .

١ - قال ابن قدامة المقدسى رحمه الله تعالى :

« لم نرض تصانيفه فى السنة ، ولا طريقته فيها ، وكانت تنفلت منه فى بعض الأوقات كلمات تنكر عليه فى السنة ، فيستفتى عليه فيها ، ويضيق صدره من أجلها» .

٢ - قال ابن رجب الحنبلى رحمه الله تعالى :

«نقم عليه جماعة من مشايخ أصحابنا وأئمتهم ميله إلى التأويل فى بعض كلامه ، واشتد نكيرهم فى ذلك ، ولا ريب أن كلامه فى ذلك مضطرب مختلف» .

تصانيفه:

قال الذهبى : ما علمت أن أحداً من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل .

وقال ابن تيمية : عددت له أكثر من ألف مصنف .

وقال ابن كثير : جمعت المصنفات الكبار والصغار نحو من ثلاثمائة مصنف، وكتب بيده نحو من مائتى مجلد .

ومن تصانيفه:

- أخبار الأذكياء .
- أخبار الحمقى والمغفلين .
- الظرفاء .
- صيد الخاطر .
- تلبيس إبليس .
- ذم الهوى .
- مشكل الصحاح
- زاد المسير فى علم التفسير .
- التيسير فى التفسير .
- ورد الأغصان فى معانى القرآن .
- الخطأ والصواب من أحاديث الشهاب
- شذور العقود فى تاريخ العهود .
- الذهب المسبوك فى سير الملوك .
- صفة الصفوة .
- مناقب عمر بن الخطاب .
- الموضوعات .
- تلقيح فهوم أهل الأثر .
- سلوة المحزون فى التاريخ .
- المضىء بفضل المستضىء .
- المنتظم .
- المناسك
- تحريم الدبر .
- تحريم المتعة .
- العدة فى أصول الفقه .
- درء الضيم في صوم يوم الغيم .
- بستان الواعظين .
- التبصرة .
- المدهش .
- المجالس البدرية .

الوفا بفضائل المصطفى .

التحقيق فى مسائل الخلاف .

المذهب فى المذهب .

مسبوك الذهب فى الفقه .

خطب الجمع .

المواعظ السلجوقية .

تقييم اللسان .

خطب الجمع .

المواعظ السلجوقية .

تقييم اللسان .

بستان الواعظين .

التبصرة .

المدهش .

المجالس البدرية .

ولمزيد من الإيضاح والتفصيل انظر :

١ -سير أعلام النبلاء : (٢١/ ٣٦٥) .

٢- الكامل لابن الأثير : (١٢/ ٧١) .

٣- البداية والنهاية : (١٣/٧٨) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

محمد سعيد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذى قدر الداء ، ودبر الدواء ، وكم وهب لمن أشفى[1] على شفا[2] هلكة الشفاء ؛ أحمده على كل ما صدر عن قضائه وجاء ، وأعلق بفضله، ومنه الرجاء .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، نور الفضاء فضاء .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أشرف من وطئ الأرض والسماء ، وعلى أصحابه وأزواجه صلاة تعم الأتباع والأولياء ، وسلم تسليماً كثيراً .

لما جمعت كتاباً فى طب الأبدان سميته (لقط المنافع) آثرت أن أشفعه بكتاب في طب النفوس أسميه (الطب الروحانى) ؛ فإن طب الأبدان إصلاح الصور ، وطب النفوس إصلاح المعانى ؛ وهى أشرف .

وإلى الله سبحانه الرغبة في النفع العاجل ، والأجر الآجل ؛ إنه جدير بتبليغ الآمال من منّه .

(الغرض من وضع الكتاب)

اعلم أن جميع ما وضع في الآدمى إنما وضع لمصلحته ، إما لاجتلاب نفع كشهوة المطعم ، أو لدفع ضر كالغضب ؛ فإذا زادت شهوة المطعم صارت شرهاً فآذت ، وإذا زاد الغضب أخرج إلى الفساد .

وهذا الكتاب موضوع لاستعمال قانون الصواب من خلال الباطن ، وكف الهوى عن المؤذى منها ، وعلاج ما خرج لموافقة الشهوة عن القانون الصحيح . وقد قسمته ثلاثين باباً .

---

(١) أشفى : على الشيء اقترب منه يقال أشفى الرجل على الموت (لسان العرب : أشفى)

(٢) شفا : الشفا في كل شيء حرفه فى التنزيل : ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾ [آل عمران : ١٠٣]

*** تقسيم الكتاب :**

الأول : فى فضل العقل .
الثـــــانـى : فى ذم الهوى
الثـــــالـث : فى الفرق بين ما يرى العقل وما يرى الهوى .
الـــرابـــع : في دفع العشق عن النفس .
الخـــامـس : فى دفع الشره .
الســــادس : فى رفض رياسة الدنيا .
الســـابـع : في دفع البخل .
الثـــامـن : في النهى عن التبذير
التـــاسـع : فى بيان مقدار الاكتساب والإنفاق .
العـــاشــر : في ذم الكذب .
الحـادى عـشـر : في دفع الحسد .
الثـانى عـشـر : فى دفع الحقد .
الثـالث عـشـر : في دفع الغضب .
الرابع عـشـر : فى دفع الكبر .
الخـامس عـشـر : في علاج العجب .
السـادس عـشـر : في علاج الرياء
السـابع عـشـر : فى دفع فضول الفكر .
الثـامن عـشـر : في دفع الحزن .
التـاسع عـشـر : فى دفع الهم والغم .
العــشـــرون : في دفع الخوف والحذر من الموت .
الحـادى والعـشـرون : فى دفع فضول الفرح .
الثـانى والعـشـرون : فى دفع الكسل .
الثـالث والعـشـرون : في تعريف الرجل عيوب نفسه .

* * *



الباب الأول

فضل العقل

قد اختلف الناس فى ماهية العقل ،و مسكنه ؛ وأطالوا ، وقد رويت فى فضله أحاديث كثيرة . قد ذكرنا جملة من ذلك فى كتابنا المسمى بـ(ذم الهوى)، فلا نعيدها ، بل نذكر ههنا جملة ، فنقول :

إنما يعرف فضل الشىء بثمرته ، ومن ثمرات العقل معرفة الخالق سبحانه؛ فإنه استدل عليه حتى عرفه ، وعلى صدق الأنبياء حتى علمه ، وحث على طاعة الله ، وطاعة رسله ، ودبر فى نيل كل صعب حتى ذلل البهائم ، وعلمه صناعة السفن التى بها يتوصل إلى ما حال بيننا وبينه البحر ، واحتال على طير الماء حتى صيدت ، وعينه أبداً تراقب العواقب ، وتعمل بمقتضى السلامة فيها والعوز ، وبترك العاجل للآجل ،وبه فضل الآدمى على جميع الحيوان الذى فقده، وبه تأهل الآدمى لخطاب الله سبحانه وتكليفه ، وبه يبلغ الإنسان غاية ما فى جوهر مثله أن يبلغه من خير الدنيا والآخرة من العلم والعمل.

وكفى بهذه الأشياء فضيلة لا ببعضها . فليكتف بهذه الجملة عن الإطالة.

الباب الثانى

فى ذم الهوى

الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه ؛ فلا يذم هذا المقدار إذا كان المطلوب مباحاً، وإنما يذم الإفراط فيه . فمن أطلق ذم الهوى ، فلأن الغالب فيه ما لا يحل أو يتأول المباح بإفراطه .

واعلم أن النفس منها : جزء عقلى ، فضيلته الحكمة ، ورذيلته الجهل .

وجزء غضبى فضيلته الحدة ، ورذيلته الجبن . وجزء شهوانى فضيلته العفة ، ورذيلته إطلاق الهوى .

فالصبر عن الرذائل فضيلة للنفس ، بها يحتمل الإنسان الخير والشر ؛ فمن قل صبره ، فحكم هواه على عقله ، فقد صير المتبوع تابعاً ، والمأموم إماماً فلا جرم أن جميع ما يرومه ينعكس عليه ؛ فإنه يتأذى من حيث قدر النفع ، ويحزن من حيث أراد الفرح .

وإنما فضل الآدمى على الحيوان البهيمى بالعقل الذى أمر بكف الهوى ، فإذا لم يقبل قوله ، وحكم الهوى ، كان الحيوان البهيمى أعذر من الآدمى .

ويدل على فضل خلاف الهوى تقديم كلب الصيد ، وإكرامه على أبناء جنسه ؛ وذلك لمكان مخالفته للهوى من حبس ما صاده على صاحبه دون أكله خوفاً من عقوبته أو شكراً لنعمته . واعلم أن الهوى فى ضرب المثل كالماء الجارى الحديد الجرية ينحدر بسفينة الطبع ، والعقل مراد ، فإن عقل المراد وتوانى مر الماء بالسفينة .

وينبغى للعاقل أن يعلم أن مقاساة الشدة فى خلاف الهوى أسهل مما يلقى فى موافقته ، وأقل ما يلقى موافقو الهوى أنهم يصيرون إلى حالة لا يلتذون به فيها ، ثم لا يصبرون عنه ؛ لأنه يصير بالإدمان عادة ، كمدمنى الجماع وشراب الخمر .

والتفكير فى هذه الأشياء تهون على الإنسان رفض الهوى . ومما يهون الهوى أن يتفكر الإنسان فى نفسه ، فيعلم أنه لم يخلق لموافقة الهوى ، فإن الجمل يأكل أكثر منه ، والعصفور يسافد[1] أكثر ، والبهائم مطلقة فى محبوباتها من غير حصر ولا يشوبهم غم . فلما نقص حظ الآدمى من الشهوات ، ثم شيبت[2] بالنقص علم أنه لم يخلق لذلك .

---

(١) يسافد : سفد ذكر الحيوان أنثاه وعلى أنثاه سفراً أى نزا عليها (لسان العرب : سفد)

(٢) شيبت : خلطت .

وقد بينت لك أن المذموم من الهوى ما أفرط ، وهو الذى يحكم عليه العقل بالخطأ . فأما ما تهواه مما تضطر إلى تناوله ويعينها على إصلاح حالها فممدوح لا مذموم .

الباب الثالث

الفرق بين ما يرى العقل وما يرى الهوى

اعلم أن الهوى يدعو إلى اللذة من غير فكر فى عاقبته ، وقد يعلم أن تلك اللذة تجلب ألماً يربو عليها ، وتمنع صاحبها نيل أمثالها ، والهوى معرض عن النظر فى ذلك ، تلك حالة البهائم إلا أن البهائم أعذر ؛ لأنها لا ترى العاقبة ولا ينبغى للعاقل أن ينزل عن رتبة بها شرف وارتفع إلى مقام من حط .

فأما العقل ، فإنه يراقب العواقب ، وينظر فى المصالح ، فمثله كمثل الرجل الحازم ، والطبيب الناصح ؛ ومثل الهوى كمثل الصبى الجاهل ، والمريض الشره .

فينبغى للبيب إذا اختلف عقله وهواه ، وقد علم أن العقل عالم ناصح : أن يستشيره وأن يصبر على مضض ما يأمر به . ويكفيه فى إيثار العقل علمه بفضله . فإن رام زيادة دليل على صحة قوله ، فليتأمل عواقب ما يجنيه الهوى على أربابه : من هتك الأستار ، والفضيحة بين الخلق ، وحط المنزلة ، وفوت الفضائل ، وهل وكس[1] جاه ، أو ذل عزيز ، أو صيد طائر ، إلا بموافقة الهوى . ومما يوضح له الدليل أن يقدر بلوغ غرضه قبل نيله ، ثم ينظر فى حاله بعد انقضاء لذته وما اكتسبه ، ويزن الالتذاذ بالجناية ، فيعلم حينئذ أنه قد خسر أضعاف ما ربح ، وقد أنشدوا فى ذلك :

كم لذة مستفزة فرحاً ... قد انجلت عن غموم آفات

كم شهوات سلبن صاحبها ... ثوب الديانات والمروآت

(١) وكس : نقص

واعلم أن الإنسان إذا وافق هواه ، وإن لم يضره ، وجد من نفسه ذلاً لمكان أنه مغلوب . وإذا قهر هواه ، وجد فى نفسه عزاً لأجل أنه غالب .

ثم أنت ترى الناس إذا شاهدوا زاهداً تعجبوا منه ، وقبلوا يده ، وما ذاك إلا لأنه قوى على ترك ما ضعفوا عنه من مخالفة الهوى .

الباب الرابع

دفع العشق عن النفس

هذا مرض قد تلف به خلق كثير ، تارة فى أبدانهم ، وتارة فى أديانهم ، وتارة فيهما . ولأجله وضعت كتاب (ذم الهوى) ، وقد ذكرت هناك من الأدوية ما يكفى ويشفى ، إلا أنى أذكر ههنا جملة لئلا يخلو الكتاب مما قد رسم فيه ؛ فأقول :

من احتمى عن التخليط بغض البصر ، وكف النظر ، سلم من هذا المرض ، فإذا لم يحتم حصل عنده من المرض بمقدار تخليطه ، فإن تدارك الأمر قبل استحكامه فربما نفع الدواء ، وإن تركه إلى أن يستحكم لم ينفعه علاج .

واعلم أن مجرد النظر إلى المستحسن لا يكاد يوجب العشق ، وإنما إذا ازداد النظر يحصله ، ويعينه قوة الطمع ، فيساعده الشباب والشهوة . فمن أراد العلاج ، فليبادر به قبل أن يستحكم المرض ، وذلك بقطع السبب والصبر فى ذلك على المضض ، فإن اليأس أعظم داء ، وأقوى معين على ذلك ، خوف الله تعالى ، وزجر النفس الأبية عن مواقف الذل ، وتذكر عيوب المحبوب الباطنة ، كما قال ابن مسعود : إذا أعجبت أحدكم امرأة فليذكر مثالبها [1] .

ومتى كان المحبوب مقدوراً عليه مباحاً كان الجمع بينهما أعظم الداء ، وإلا فالنكاح فى الجملة يخفف المرض ، واستجداد الزوجات ، واستحداث

---

(١) مثالبها : عيوبها .

الجوارى ، وطول السفر ، والتفكير فى خيانة المحبوب وتجنيه ، والنظر فى كتب الزهد ، وذكر الموت ، وعيادة المرضى ، وزيارة القبور .

ثم يتفكر فى وجود غرضه وانقضائه ، وسآمته مع الزمان ، وتغير الخلق ؛ وليتصفح العبر فى نفسه وغيره ؛ فلعل غيره يأخذ بيده ، فينتاشه[1] من هذه الهوة ، ويجتذبه من هذه الورطة ، كما روينا أن رجلاً كان يهوى غلاماً ، فنظر يوماً فى المرآة ، فرأى طاقة[2] شيب ، فهجر الغلام ، فكتب الغلام إليه :

مالى جفيت وكنت لا أجفى	ودلائــل الهجــران لا تخـفى
أراك تشـــربنى فتمــزجنى	ولقــد عهدتك شاربى صرفاً[3]

فكتب إليه فى الجواب :

أتــصابى[4] مع الشــمط[5]	ســـمتنى خطـــة شـــطط[6]
لا تـــلمنى عـــلى جفـا	ى فحســـبى بمـــا فـــرط
أنـــا رهـــن بمـــا جنيـ	ــــت فـذرنى مـن الغلط
قـــد رأينـــا أبـــا الخـلا	ئـــق فـى زلـــة هبــط

(١) ينتاشه : ينقذه .

(٢) طاقة : شعبة فى شعر (لسان العرب : طوق) .

(٣) صرفاً : شراب صرف : لم يمزجه (لسان العرب : صرف) .

(٤) أتصابى : صبى إليها : مال ، وتصابى : تكلف الصبا (لسان العرب : صبى) .

(٥) الشمط : شمط الشىء : اختلط بغيره ، ويقال شمط شعرة : اختلط سواده ببياض (لسان العرب : شمط) .

(٦) الشطط : يعدو فى الأمر أمعن وجاوز الحد . (لسان العرب : شمط) .

الباب الخامس
فى دفع الشره

اعلم أن الشره إذا أطلق انصرف إلى موافقة الهوى فى المطاعم، وكم قد أوجبت من أمر فزالت بأربابها إلى التلف ، وهى علة تتولد عن قوة النفس الشهوانية .

قال الحارث بن كلدة : الذى قتل البرية ، وأهلك السباع فى البرية ، إدخال الطعام على الطعام . وقال غيره : لو قيل لأهل القبور ما كان سبب آجالكم لقالوا : التخم.

وساق بسنده إلى الحسن ، قال : قيل لسمرة : إن ابنك لم ينم الليلة !

قال : أبشماً[1] ؟ .

قيل : بشماً .

قال : لو مات لم أصل عليه .

البشم فى الطعام والبغر[2] فى الماء .

قال رجل لرجل يعيره : مات أبوك بشماً ، وماتت أمك بغراً !

وعن عقبة الراسبى، قال : دخلت على الحسن ، فوافقته يتغذى ، فقال : هلم .

فقلت : أكلت حتى لا أستطيع أن آكل .

فقال : سبحان الله ويأكل المسلم حتى لا يستطيع أن يأكل ؟!

---

(١) أبشما : أبشمه الطعام : أتخمه (لسان العرب : بشم) .

(٢) البغر : بغراً : عطش فلم يروه الماء : البغر : داء يشتد معه العطش فلا يخففه الماء، والماء الخبيث يصيب شاربه بالبغر وتأباه الماشية (لسان العرب : بغر) .

«فصل»

واعلم أن العاقل يجب أن يأكل ليبقى والجاهل يؤثر أن يبقى ليأكل ورب لقمة منعت لقمات وكانت سبب الهلاك وقد بينت عيوب الشبع فى كتاب «لقط المنافع» وإنما المقصود ههنا زجر النفس الشرهة لتكف الكف عما يؤذيها. وفيما ابتدأت به من ذكر فضل العقل وذم الهوى ما يكفى فى الامتناع من كل رذيلة وهجر ما يخاف عواقبه.

فصل : الشره فى الجماع

وقد يكون الشره فى الجماع ، وقد بينت فى كتاب اللقط : أنه كلما كثر استعماله امتنعت أوعية المنى ، فانجذب إليها غذاء ليس بنضيج ، واستلبت قوى الأصول ؛ وهى الدماغ ، والقلب ، والكبد ، فتبرد الحرارة الغريزية ، ويسرع لذلك الهلاك .

ثم إن صورة الوطء تنبو[1] عنها النفوس الشريفة ، إلا أن يدفع شر محتقن أو يطلب ولد ، فأما أن يصير عادة يكون بالتمتع بنفس الفعل ، فتلك مزاحمة البهائم .

فصل : الشره فى جمع المال

وقد يقع الشره فى جمع المال ، وهو من الجنون البارد إذا زاد على قدر الحاجة ؛ لأن المال لا يراد لنفسه ، وإنما يراد لغيره . ولا ينكر على من جمع مالا غنى للنفس عنه ، فاستغنى به عن الناس ، وأغنى أولاده ، وبذل بعضه للمحتاجين.

إلا أنه ينبغى للعاقل بعد حصل المقدار والمتوسط من ذلك أن لا يضيع الزمان الشريف ، وأن يخاطر بالروح التى لا قيمة لها فى الأسفار وركوب البحار ، وما أحسن قول الشاعر :

(١) تنبو : نبى : أى أعرض ونفر .

ومن ينفق الأيام فى جمع ماله   مخافة فقر فالذى فعل الفقر

وكم قد رأينا وسمعنا عن أقوام يقترون على أنفسهم فى الإنفاق ويركبون مع كبر السن البحار ليربحوا بزعمهم ، فهلكوا فى أسفارهم ، وما بلغوا بعض أغراضهم .

وهذا المرض ينبغى أن يداوى بتلميح المقصود من المال ، والموازنة بين حصوله وبين المخاطرة بأنفس نفيس ، وهى النفس والوقت ، فمن شاور عقله فهم المراد ، ومن غلبه مرض الحرص هلك فى بيداء الشره ، ولا وارث إلا المطية والرحل .

فصل : الشره فى الشكليات

وقد يقع الشره فى فنون ما يلتذ به من الأبنية المنقوشة ، والخيل المسومة ، والملابس الفاخرة ، وغير ذلك وهذا مرض أصله موافقة الهوى ، وعلاجه أن يعلم أن الحساب على كسب الحلال شديد عزيز ، والتبذير ممنوع منه ، وأن الله تعالى لا ينظر إلى من جر ثوبه خيلاء ، وأن كل شىء يؤجر المؤمن عليه إلا البناء .

فالعاقل من نظر فى مقدار إقامته ، وتلمح بيت نقلته ، فحينئذ يقنع من الثياب بما يواريه[1] ، ومن البنيان ما يؤويه .

وفى الحديث : أن نوحاً عليه السلام لبث فى بيت شعر ألف سنة إلا خمسين عاماً .

وأن رسول الله ﷺ ما وضع لبنة على لبنة[2] .

وكان فى ثوب عمر اثنا عشر رقعة

فهؤلاء فهموا أن الدنيا مفازة ، والمفازة لا تتوطن ؛ فمن فاته العلم بهذا مرض مرض الشره ، وعلاجه النظر فى العلم والتأمل بسير العلماء العقلاء .

---

(١) يواريه : واراه : أخفاه وستره (لسان العرب : ورى) .

(٢)رواه البخارى فى الاستئذان (٦٣٠٣)

الباب السادس

فى رفض رئاسة الدنيا

اعلم أن النفس تحب الرفعة والعلو على جنسها ، فتؤثر الإمارة والولاية لمكانة الأمر والنهى ، وهذا وإن كان مطلوباً إلا أن فيه مخاطرات : أقلها العزل بعد الولاية ، وأعظمها الجور فى الحكومة ، وأوسطها تضييع الزمان إذا لم تصح للوالى نية .

وينبغى لمن أحب الولاية أن يعلم أنه إنما يتخايلها عظيمة ما لم ينلها ، فإذا نالها هانت عنده ، وسما إلى غيرها ، فاللذة تزول ، والأوزار تبقى ، والمخاطرة بالنفس والدين ؛ فالتفكر فى هذه الأشياء علاج .

بسنده إلى أبى أمامة ، عن النبى ﷺ ، قال : **«ما من رجل يلى أمر عشرة، فما فوق ذلك إلا أتى الله عز وجل يوم القيامة مغللة يده إلى عنقه ، فكه بره ، أو أوبقه[1] إثمه . أولها ملامة ، وأوسطها ندامة ،وآخرها خزى يوم القيامة»[2]**.

بسنده إلى أبى هريرة مرفوعاً : **«ويل للأمراء ، ويل للعرفاء [3] ، ويل للأمناء.. ليتمنين أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم كانت معلقة بالثريا يتذبذبون بين السماء والأرض ولم يكونوا عملوا على شيء »[4]** .

وفى إفراد مسلم من حديث أبى ذر ، قال : قلت : يارسول الله ألا تستعملنى ؟ قال : فضرب بيده على منكبى ، ثم قال : **«يا أبا ذر إنك ضعيف ،**

---

(١) فكه : أنجاه . أوبقه : أهلكه وحبسة وذلله (لسان العرب : وبق) .

(٢) إسناده حسن : رواه أحمد ٥/ ٢٦٧ والهيثمى (٥/ ٢٠٥) وقال : رواه أحمد والطبرانى وفيه يزيد بن أبى مالك وثقه ابن حبان وغيره وبقية رجاله ثقات . وحسنه الألبانى فى الصحيحه(٣٤٩) .

(٣) العرفاء، مفرده العريف : العارف العالم بالشيء القيم بأمر القوم وسيدهم (لسان العرب : عرف) .

(٤) رواه أحمد (٢/ ٣٥٢) .

وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة ، إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه لها » . وفى لفظ آخر : **«يا أبا ذر إنى أحب لك ما أحب لنفسى ، لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم»**[1] .

الباب السابع
دفع البخل

اعلم أن مجرد الإمساك للمال لا يسمى بخلاً ؛ لأن الإنسان قد يمسك فاضل المال لحاجته ، ولحوادث دهره ، ولأجل عياله وأقاربه . وهذا كله من باب الحزم ، فلا يذم وقد يجد قوم قوة فى النفس بحفظ المال .

وإنما يقع اسم البخل على مانع الحق الواجب، قال ابن عمر : من أدى الزكاة فليس ببخيل .

ثم يقال لمن منع مالا يضره ولا يكاد يؤثر فيه مما ينتفع به الناس : بخيل ، وقد قال النبى ﷺ : **«وأى داء أدوى من البخل»**[2] .

قال أبو محمد الرامهرمزى : إنما يشبه البخل بالداء ؛ لأنه يفسد الخلق ، ويدفع عن السؤدد [3] ، ويكسب سوء الثناء والمذمة ، كما أن الداء يضعف الجسم ، ويبطل الشهوة ، ويغير اللون .

وقد قالت الحكماء : الكريم حر ؛ لأنه يملك ماله ، والبخيل لا يستحق اسم الحرية ؛ لأن ماله يملكه .

وبسنده عن عبد الله بن عمرو ، عن النبى ﷺ أنه قال : **«إياكم والشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالبخل**

---

(١) رواه مسلم (١٨٢٥/١٦ ، ١٧).

(٢) رواه البخارى (٤٣٨٣)

(٣) السؤدد : السيادة والمجد والشرف .

فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»[1].

وقال عليه السلام : «خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن: البخل ، وسوء الخلق»[2].

قال الخطابى : الشح أبلغ من البخل ، فهو بمنزلة الجنس ، والبخل بمنزلة النوع.

وقال بعضهم : البخل أن يضن بماله ، والشح أن يبخل بماله ومعروفه .

وقال بشر الحافى : لقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين .

وعلاج البخل أن يتفكر فيرى أن فقراء بنى آدم إخوانه ، وقد أوثر عليهم وأحوجوا إليه ، فليجعل شكر المنعم مواساة الإخوان ، ولينظر فى شرف الكرم، وليعلم أنه يسترق الأحرار إذا أسدى إليهم معروفاً ، وينهب عرضه الأشرار إذا بخل ، وليتيقن أنه سيترك ما فى يديه ذميما فليخرج منه قبل أن يخرج عنه

الباب الثامن
النهى عن التبذير

التبذير مما يأمر به الهوى ، وينهى عنه العقل ، وأحسن الأدب فى هذا الباب تأديب الحق سبحانه تعالى حين قال : ﴿ولا تبذر تبذيراً﴾[3] الآية .

واعلم أن الإنسان قد يعطى رزق شهر فى يوم ، فإذا بذر فيه بقى شهراً يعانى البلاء ، وإذا دبر فيه عاش شهراً طيب العيش .

وعلاج مرض التبذير النظر فى العواقب ، والحذر مما يجوز كونه من الحاجة إلى الناس والفقر ؛ فذلك يكف كف التبذير .

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٨/ ٥٦).

(٢) إسناده صحيح: رواه الترمذى (١٩٦٢) وقال حديث غريب وفى الباب عن أبى هريرة .

(٣) سورة الإسراء : الآية : ٢٦ .

الباب التاسع
بيان مقدار الاكتساب والإنفاق

فينبغى العاقل أن يكتسب أكثر مما يحتاج إليه ، ويقتنى ما يعلم أنه لو حدث به حادثة كان فى المقتنى عوض عما ذهب ، ولو عرض له مانع من الاكتساب قام المقتنى بحاجته بقية عمره ، ولو جاءه أولاد واحتاج إلى فضل زوجة وخادم واحتاج ولده إلى مثل ذلك كان فى كسبه ما يكفيه .

وفى الجملة ينبغى أن تكون النفقة أقل من الكسب ليقتنى من الفضل ما يكن معداً لحادثة لا تؤمن .

وهذا ما يأمر به العقل الناظر فى العواقب ، ولا يبالى به الهوى الناظر إلى الحالة الحاضرة .

وساق بسنده إلى أبى الدرداء مرفوعاً : **«من فقه الرجل بعد النظر فى معيشته»** (1) ، وقد روى موقوفاً .

الباب العاشر
ذم الكذب

هذا من العوارض التى يدعو إليها الهوى ، وذلك أن الإنسان لمحبته الرئاسة يؤثر أن يكون مخبراً معلماً لعلمه بفضل المخبر على المخبر .

علاج هذا المرض أن يعلم عقوبة الله للكاذب ، وأن يتيقن أنه مع استدامة الكذب لابد أن يطلع على حاله فينقص نقصاً لا يتلافى ، فيربو حياؤه وخجله واحتقار الناس له وتكذيبهم إياه فى الصدق ، وقلة ثقتهم به على ما اكتذبه .

بسنده عن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(1) رواه أحمد(٥/ ١٩٤) بمعناه .

«ما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» (١).

وقال ابن مسعود : «كل الخلال (٢) يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب» .

الباب الحادى عشر
فى دفع الحسد

الحسد تمنى زوال نعمة المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها . وسبب ذلك حب الميزة على الجنس ، وكراهة المساواة ، فإذا حصلت للغير نعمة تميز بها تألم هذا الإنسان لتلك الميزة أو بمساواته له فيها ، فلا يزيل ذلك الألم إلا زوال تلك النعمة عن المحسود .

وهذا أمر لا يكاد أحد ينفك منه فى باطنه ، ولا يأثم الإنسان بوجود ذلك ، بل يأثم بالتمنى لزوال النعمة عن أخيه المسلم .

واعلم أن الحسد يوجب طول السهر ، وقلة الغذاء ، ورداءة اللون ، وفساد المزاج ، ودوام الكمد(٣) .

قيل لأعرابى عاش مائة وعشرين سنة : ما أطول عمرك؟

فقال : تركت الحسد ، فبقيت .

واعلم أنه لا يقع الحسد إلا فى أمور الدنيا، فإنك لا ترى أحداً يحسد قوّام الليل، ولا صوام النهار، ولا العلماء على العلم، بل على الصيت والذكر

وعلاج هذا المرض : أن يعلم الإنسان أولاً أن الأقدار السابقة لابد أن تجرى ، وأن الاحتيال فى صرف المقدور غير ممكن ، وأن القسام حكيم ، ثم

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧/ ١٠٥) .

(٢) الخلال : الخصال والطباع .

(٣) الكمد : كمد الرجل : كتم حزنه أو حزن حزناً شديداً (لسان العرب : كمد) .

هو مالك يعطى ويحرم ، فهو الذى خلق الطرف[1] السابق والكودن [2] ، كأن الحاسد مضاد لإرادة المعطى سبحانه .

وقال بعض الحكماء :

ألا قل لمن كان لى حاسداً	أتدرى على من أسأت الأدب
أسأت على الله فى فعله	لأنك لم ترض لى ما وهب
فجازاك عنى بأن زادنى	وسد عليك وجوه الطلب

ثم أن المحسد لم ينقص الحاسد من رزقه ، ولم يأخذ شيئاً من يده ، فقصد الحاسد زوال ما أعطيه ظلم محض .

ثم ينبغى للحاسد أن ينظر فى حال المحسود ، فإن كان إنما نال الدنيا فقط ، فهذا ينبغى أن يرحم لا أن يحسد ؛ لأن الذى ناله فى الغالب عليه لا له ، وهل فضول الدنيا إلا هموم كما قال المتنبى :

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته	ما قاته وفضول العيش أشغال

وبيان هذا أن الكثير المال شديد الخوف عليه ، والكثير الجوارى شديد الحذر عليهن ، قوى الاهتمام بهن أو لهن ، والوالى خائف من العزل .

ثم ليعلم أن النعم كثيرة الأكدار ، ثم هى قليلة اللبث ، والمصائب تردفها ؛ فإن صاحب النعمة ينتظر زوالها أو زواله عنها .

ثم ليوقن أن ما يحسد عليه المحسود ليس هو عند المحسود كما هو عند الحاسد ، فإن الناس يظنون فى أرباب المناصب أنهم فى غاية اللذة ، ولا يدرون أن الإنسان يسمو إلى أمر ، فإذا ناله برد عنده ، وصار عادة له ، فهو يسمو إلى ما هو أعلى منه ، وهذا الحاسد يرى الأمر بعين الجدة والغبطة .

---

(١) الطرف السابق : الكريم من الخيل ونحوها وجمعها طروف وأطراف (لسان العرب : طرف) .
(٢) الكودن : الفرس الهجين والبرذون

وليعلم الحاسد أنه لو عاقبه المحسود لما ناله بأشد من الأذى الذى هو فيه، فإن لم ينتفع بشىء من هذا العلاج فليسع فى التسبب إلى مثل ما نال المحسود، فقد قال بعض السلف : لقد خشيت الهم حتى فى الحسد، فإن الرجل إذا حسد جاره على الغنى سافر وتاجر ليصير مثله. أو على العلم سهر وتعلم فقد صار الناس يحبون البطالة، ثم يذمون الواصل إلى المعالى، وما أحسن ما قال الرضى :

ذنبى إلى البهم الكوادن أننى
الطرف المطهم والأغر الأقرح[1]

يولوننى خزر العيون لأننى
غلست فى طلب العلى وتصبحوا[2]

وجذبت بالطول الذى لم يجذبوا
ومتحت بالغرب الذى لم يمتحوا[3]

لو لم تكن لى فى العيون مهابة
لم يطعنّ الأعداء فى ويقدحوا

فإن لم ينل ما نال المحسود، فلتكن مجاهدته إمساك لسانه عن ثلبه[4] وحبس ما فى قلبه.

---

(١) الطرف : الكريم. المطهم : التام من كل شىء(لسان العرب : طهم) الأغر : المتباهى الحسن أو الكريم الحسب، وقرحة : وهى بياض بقدر الدرهم فما دونه فهو أقرح. (لسان العرب : قرح).

(٢) الخزر العيون : هزرت العين هزراً : صغرت وضاقت حلقة، (لسان العرب : خزر) غلس : سار بغلس والغلس ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بهواء الصباح أى سار بهمة عالية فى طلب العلى(لسان العرب : غلس).

(٣) الطول : الحبل الذى يربط فى الدابة وتشد منه، متح : اشتقى. الغرب : الدلو العظيمة.

(٤) ثلبة فلاناً : عابه وتنقصه (لسان العرب : ثلب).

فصل : الأحاديث التى تذم الحسد

وقد جاءت الأحاديث بذم الحسد .

بسنده إلى الزبير بن العوام ، قال : قال رسول الله ﷺ : **« دب إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء ، والبغضاء هى الحالقة ، حالقة الدين لا حالقة الشعر ، والذى نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أنبئكم بشىء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم »**[1] .

وبسنده قال عمر بن ميمون : رأى موسى ﷺ رجلاً عند العرش ، فغبطه بمكانه ، فسأل عنه ، فقال : نخبرك بعمله ، لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، ولا يمشى بالنميمة ، ولا يعق والديه .

وبسنده إلى سالم ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : **« لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله عز وجل القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل والنهار ، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه فى الحق آناء الليل والنهار »**[2] أخرجاه فى الصحيحين .

الباب الثانى عشر

دفع الحقد

الحقد بقاء أثر القبيح من المحقود فى نفس ، ولعمرى أن العقل يقضى ببقاء أثر القبيح كما يقضى ببقاء أثر الجميل .

وبسنده إلى عبد الله بن كعب بن مالك ، قال : سمعت كعب بن مالك يحدث فى حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ فذكر القصة ، ونزول توبته ، قال : فدخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس ، فقام إلى طلحة ابن عبيد الله يهرول ، حتى صافحنى وهنأنى ، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ، قال : فكان كعب : لا ينساها لطلحة[3] . أخرجاه فى الصحيحين .

---

(١) **إسناده صحيح** : رواه أحمد (١/ ١٦٥) و الترمذى (٢٥١٠) وصححه .

(٢) **متفق عليه** : رواه مسلم (٨١٥) والبخارى (٧٣) بنحوه

(٣) **متفق عليه** : رواه البخارى (٤٦٧٣) ومسلم (٢٧٦٩/ ٥٣ ، ٥٥)

فإذا ثبت أن الجميل لا ينسى ، فالقبيح كذلك ، إلا أنه يستحب الاجتهاد فى إزالة أثر القبيح من القلب .

وعلاج ذلك أن يكون بالعفو والصفح . وللعفو محلان :

أحدهما : رؤية الثواب للعافى .

الثانى : شكر من جعل هذا فى مرتبة من يعفو ، وذلك فى منزلة من يهفو .

ومن كمال العفو حصول الرضا ، وذلك بمحو ما فى القلب .

وههنا علاج أدق من هذا ، هو أن يرى الإنسان أن الذى سلط عليه لأذاه إنما هو بذنب منه ، أو لتكفير خطأ ، أو لرفع درجة ، أولاختباره فى صبره .

وثم علاج أدق من هذا ، وهو أن يرى الأشياء من المقدر .

الباب الثالث عشر

دفع الغضب

لقد بينا أن الغضب إنما ركب فى طبع الآدمى ليحثه على دفع الأذى عنه ، و الانتقام من المؤذى له ، وإنما المذموم إفراطه ؛ فإنه حينئذ يزيل التماسك ، ويخرج عن الاعتدال ، فيحمل على تجاوز الصواب ، وربما كانت مكانته فى الغضبان أكثر من مكانته فى المغضوب عليه . والغضب حرارة تنتشر عند وجود ما يغضب ، فيغلى عندها دم اللذات طلباً للانتقام ، وربما أثر الحمى وسببه فى الغالب الكبر ؛ فإن الإنسان لا يغضب على من هو أعلى منه .

وعلاجه أولاً أن يتثبت الغضبان ، ويغير حاله ؛ فإن كان ناطقاً سكت ، وإن كان قائماً قعد ، وإن كان قاعداً اضطجع ليسكن تلك الفورة ، وإن خرج فى الحال عن المكان وبعد عن المغضوب عليه كان أصلح ، ثم يتفكر فى فضل

كظم الغيظ ، فقد مدح الله سبحانه القوم ، فقال : ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾ [(١)] . فإن رأى ما سلط عليه بذنبه أو شاهد قدرة المسلط على ما ذكرنا فى الحقد هان الأمر .

فصل : الأحاديث التى جاءت فى دفع الغضب

وقد جاء فى هذا أحاديث ، فذكر بسنده إلى أبى هريرة ، قال : أتى النبى ﷺ رجل ، فقال : أوصنى ، قال : **«لا تغضب»** فردد مراراً ، قال : **«لا تغضب»** [(٢)] . رواه البخارى .

وقال رسول الله ﷺ : **«ليس الشديد بالصرعة [(٣)] ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب»**[(٤)] . أخرجاه .

وأخرجا من حديث سلمان بن صرد ، قال : كنت جالساً مع النبى ﷺ ، ورجلان يستبان ، وأحدهما قد احمر وجهه ، وانتفخت أوداجه ، فقال النبى ﷺ : **«إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد ، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد»** ، فقالوا له : إن النبى ﷺ قال : **«تعوذ بالله من الشيطان الرجيم»** فقال أبى جنون [(٥)] .

وروى أبو داود فى سننه من حديث أبى ذر ، عن النبى ﷺ أنه قال : **«إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع»**[(٦)] .

---

(١) سورة آل عمران : الآية : ١٣٤ .

(٢) رواه البخارى (٦١١٦)

قال الخطابى : معنى قوله لا تغضب : اجتنب أسباب الغضب ولا تتعرض لما يجلبه وأما نفس الغضب فلا يتأتى النهى عنه لأنه أمر طبيعى لا يزول من الجبلة .

(٣) الصرعة : الغلاب فى المصارعة الذى لا يغلب (لسان العرب : صرع) .

(٤) **متفق عليه** : رواه البخاري (٦١١٤) ومسلم (٢٦٠٩/١٠٧، ١٠٨) .

(٥) **متفق عليه** : رواه البخاري (٦١١٥) و مسلم (٢٦١٠/١٠٩، ١١٠)

(٦) **إسناده صحيح** : رواه أبو داود (٤٧٨٢، ٤٧٨٣) وقال على الأخير هذا أصح الحديثين وأحمد ٥/١٥٢

قال الخطابي : القائم متهيىء للحركة والبطش ، والقاعد دونه في هذا المعنى .

وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا غضب أحدكم فليسكت »[1] .

وقال الأحنف : ما اعترض التثبت في الغضب إلا وهي[2] شيطان العجلة .

فصل : عواقب الغضب

ومتى لم يسكن الغضبان عند شدة فورته لم يؤمن أن تبدر منه نكاية[3] يندم عليها إما في نفسه أو في المغضوب عليه ، فكم ممن غضب فقتل وجرح أو كسر عضو ولده ، ثم بقي الدهر نادماً على ما فعل .

ومنهم من ينكأ في نفسه فإن رجلاً غضب مرة ، فصاح فنفث[4] الدم في الحال ، وأدى به الأمر إلى الهلاك فمات .

ولكم رجل رجلاً ، فانكسرت أصابع اللاكم ولم يستضر الملكوم .

ومن العلاج أن يتصور الغضبان حاله عند الغضب ، ثم يتصور حاله عند السكون ، حينئذ يعلم أن حالة الغضب حالة جنون ، وخروج عن مقتضى العقل ، ومتى لم ينثن عزم الغضبان عن ضرب المغضوب عليه ، فاستقر وغير ذلك وعد نفسه بالفعل بشرط التثبت ، فإنه إذا حصل التثبت رأى قبح ما عزم عليه فترك .

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٣٩) .

(٢) وهي : ضعف .

(٣) نكاية : أوقع به (لسان العرب : نكى) .

(٤) نفث : فلان ينفخ غضب أوللشيء من فيه : رمى به (لسان العرب : نفث) أي خرج الدم في فيه .

فصل : حال السلف عند الغضب ؟

وقد كان السلف إذا غضبوا غفروا وصفحوا طلباً لفضيلة العفو وكظم الغيظ .

ومنهم من يرى السبب فى إغضابه ذنوب نفسه .

ومنهم من يرى أنه مختبر ، إلى غير ذلك مما ذكرناه فى باب الحقد .

وفى بعض كتب الله تعالى : **« يا ابن آدم اذكرنى إذا غضبت أذكرك إذا غضبت ، فلا أمحقك مع من أمحق ، وإذا ظلمت فارض بنصرتى ؛ فإن نصرتى خير لك من نصرتك لنفسك »** .

وقال مورق : ما تكلمت بكلمة فى الغضب فندمت عليها فى الرضا .

وكان ابن عون لا يغضب ، فإذا أغضبه الرجل ، قال : بارك الله فيك .

فصل : لا ينبغى للغضبان المعاقبة حين الغضب

ولا ينبغى للغضبان على الشخص أن يعاقبه فى حالة غضبه ، وإن كان مستحقاً للعقوبة ، بل يمهل حتى يسكن الغضب ، لتكون العقوبة بمقدار الإساءة لا بمقدار الغضب .

أتى عمر بن عبد العزيز برجل كان واجداً [1] عليه ، فقال : لولا أنى غضبان لضربتك ، ثم خلى سبيله .

---

(١) واجدا عليه : غضباناً عليه (لسان العرب : وجد) .

الباب الرابع عشر
دفع الكبر

الكبر تعظيم شأن النفس ، واحتقار الغير ، وذلك يكون بسبب الترفع على من هو دونه ، إما فى النسب أو المال أو العلم أو العبادة أو غير ذلك .

وعلامة الكبر الأنفة ممن يتكبر عليه والاختيال و الفخر ومحبة تعظيم الناس له .

وعلاج ذلك نوعان : جملى ، وتفصيلى .

فأما الجملى ، فنوعان : علمى ، وعملى :

فالعلمى فى الأدلة السمعية والعقلية على رذائل الكبر ،

وأما العملى فصحبة المتواضعين وسماع أخبارهم .

وأما التفصيلى فأن ينظر إلى رذائل النفس وأن يعلم أن ما يتكبر به إن كان مالاً ، فهو مأخوذ منه عن قريب ، والفضل إنما يكون فى الغنى عن الشىء لا به ؛ لأن الغنى بالشىء فقير إليه ، وإن كان علماً فقد سبقه خلق كثير أعلم منه ، ثم علمه ينهاه عن حالته ، فهو حجة عليه .

كذلك إن كان عملاً ثم رؤيته للعمل بعين التمام نقيصة .

فصل : الأحاديث فى ذم الكبر

ذكر بسنده إلى أبى سلمة ، قال : التقى عبد الله بن عمرو وابن عمر على المروة فنزلا فتحدثا ، ثم مضى عبد الله بن عمرو وقعد ابن عمر يبكى ، فقيل له : ما يبكيك فقال هذا - يعنى عبد الله بن عمرو- زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : **«من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كبه الله تعالى فى النار على وجهه»** [1] .

---

(١) **إسناده صحيح** : رواه الطبرانى فى الكبير بهذا اللفظ كما فى مجمع الزوائد (١/ ٩٨) وقال الهيثمى : رجاله رجال الصحيح ، ورواه مسلم بمعناه (٩١/ ١٤٧ - ١٤٩) .

وبسنده إلى إياس بن سلمة ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب من الجبارين حتى يصيبه ما أصابهم»[1] .

وفى أفراد مسلم من حديث ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال : «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر» فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة ؟ قال :«إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس »[2] .

وفى أفراده من حديث الأغر عن أبى هريرة وأبى سعيد ، قالا ؛ قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل : العز إزارى ، والكبر ردائى ، فمن نازعنى فيهما عذبته»[3] .

قال الخطابى : معنى هذا الكلام أن الكبرياء والعظمة صفتان لله اختص بهما ، لا يشركه فيهما أحد ، ولا ينبغى لمخلوق أن يتعاطاهما ؛ لأن صفة المخلوق التواضع والتذلل وضرب الرداء والإزار ، مثلاً يقول (والله أعلم) : كما لا يشرك الإنسان فى إزاره وردائه ، فكذلك لا يشركنى فى الكبرياء والعظمة مخلوق .

قال : وقوله : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر »[4] يتأول على وجهين :

أحدهما : أنه كبر الكفر ،

والثانى : أنه ينزع الكبر من قلوب أهله قبل دخولهم الجنة .

وقوله : «وغمط الناس » أنه أزرى[5] بهم واستخف بهم ، ويقال : غمط وغمص .

---

(١) **إسناده حسن** : رواه الترمذى (٢٠٠٠) . وقال : هذا حديث حسن غريب

(٢) رواه مسلم (٩١/ ١٤٧).

(٣) رواه مسلم (٢٦٢٠/ ١٣٦)

(٤) رواه مسلم (٩١ / ١٤٧ - ١٤٩).

(٥) أزرى بالشىء : تهاون به .

وبسنده إلى الحسن قال : تراهم يهدرون عند هدير الفحل أنت والله أنت والله وتراه مقنعاً ساكتاً يحسب حميق أنه مثل ما يقال له . قال : وترى أحدهم يتخزل[1] فى مشيته يحسب عظامه عظماً عظماً لا يمشى طبيعة .

الباب الخامس عشر

دفع العجب

العجب إنما ينشأ من حب النفس، والمحبوب لا ترى زلته، ولا يعتقد نقصه، بل يرى بعين الكمال. ومن بلايا العجب أنه يؤدى إلى بغض الأمر الذى به وقع العجب؛ لأن المعجب بنفسه فى أمر لا يتزيد منه ثم يترقى إلى أن يعيب غيره فى الاعتقاد والنقص فى سواه.

وعلاج العجب : البحث عن عيوب النفس على مابينا آنفاً، وسؤال الغير عن قبائحها ومعايبها، والنظر فى أحوال من سبقه إلى ما أعجب به وبرز[2] عليه، فإن عجب العالم بعلمه فلينظر فى سير العلماء، أو بزهده فلينظر فى سير الزهاد، فحينئذ لا يعد نفسه فقد كان الإمام أحمد يحفظ ألف ألف حديث، وكان كهمس بن الحسن يختم القرآن كل يوم وليلة ثلاث مرات، وصلى سلمان التيمى الفجر بوضوء العتمة[3] أربعين سنة.

ومن تأمل سير القوم رأى نفسه فيما حصل بالإضافة إليهم كمن معه دينار يعجب به ولا يدرى أن فى الدنيا من يملك ألوفاً كثيرة.

وبسنده قال إبراهيم الخواص : العجب يمنع من معرفة قدر النفس.

وقال بعض الحكماء : عجب المرء بنفسه أحد فساد عقله وماأضر العجب بالمجلس.

(١) يتخزل الرجل خزلا : أصاب وسط ظهره كسر والمرأة فى مشيتها تثاقلت وتبخترت (لسان العرب : خزل).

(٢) برز : فاق.

(٣) وضوء العتمة : وضوء صلاةالعشاء.

الباب السادس عشر

دفع الرياء

من عرف الله تعالى حق معرفته أخلص له عمله، وإنما يقع الرياء من قلة المعرفة له، وتعظيم قدر الخلق، وإيثار النفس مدحهم وحمدهم، والناس فى هذا المرض متفاوتون، فمنهم من لا يقصد بعمله إلا مدح الخلق له، ومنهم من يريد الله بعمله ويريد مدح المخلوقين، ومنهم من لا يقصد الخلق أصلاً، فإذا اطلعوا عليه حسن العمل وجوده ليمدح فهذه آفة دخلت على عمل صحيح.

وعلاج هذا المرض: فى الجملة تحقيق معرفة الله سبحانه، فمن عرفه أفرد القصد له، ولم ير غيره، وأقام نفسه فى مقام العابد الذليل للمعبود لا فى مقام معبود ممدوح، ورأى أن حصول الأجر إنما يكون بخالص العمل فاحترس من تعب ضائع.

والعقوبة على الرياء شديدة،

بسنده حديث عمر بن الخطاب: **«إنما الأعمال بالنية، وإنما لكل امرئ ما نوى»** [1].

وبسنده إلى أبى موسى، قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت أن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياءً، فأى ذلك فى سبيل الله؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: **«من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»**[2] متفق عليه.

وبسنده إلى أبى هريرة، قال له ناتل الشامى: أيها الشيخ حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن أول**

---

(1) **متفق عليه**: رواه البخارى (1) ومسلم (١٩٠٧/ ١٥٥) وهذا الحديث هو ثلث الإسلام ويدخل فى سبعين باباً من الفقه ومعناه أن الأعمال تحسب إذا كانت بنية ولا تحسب إذا كانت بلا نية.

(2) **متفق عليه**: رواه البخارى (١٢٣) ومسلم (١٩٠٤/ ١٥٠، ١٥١).

الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة : رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، فقال : ما عملت فيـها ؟ قال : قاتلت فيك حتى قتلت: قال: كـذبت، ولكنك قاتلت ليقال: هو جرىء. فقد قيل،ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار.

ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعـمه فعرفها، فقال : ما عملت فيها؟ قال: تعلمت فيك العلم وعلمـته وقرأت القرآن. فقال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: هو عالم ، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ. فقد قيل،ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

ورجل وسع الله عليـه وأعطاه من أصناف المـال كله، فأتى به فـعـرفـه نعمـه فعرفها، فقال: ما عملت فيها؟فقال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيهـا لك ،قال: كذبت ولكنك فعلت ليقـال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمـر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار»[1] انفرد بإخراجه مسلم .

وبسنده إلى أبى هريرة عن النبى ﷺ يرويه عن ربه عـز وجل : **«قال أنا خير الشركاء ، فمن عمل عملاً فأشرك فيه غيرى فأنا برىء منه وهو للذى أشرك»**[2] أخرجه مسلم .

وبسنده إلى مـحـمـود بن لبيـد : أن رسول اللهﷺ قـال : **« إن أخوف مـا أخاف عليكم الشرك الأصغر»** قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : **«الرياء ، يقـول الله تعالى لهم يوم القـيامـة إذا جازى الناس بأعـمالهم: اذهبـوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً »** [3] .

وبسنده إلى أبى حازم، قال : لا يحسن عبد فيمـا بينه وبين العباد ولا

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥/ ١٥٢).

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥).

(٣) **إسناده جيد** : رواه أحمد (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩) والبيهقى فى شعب الإيمان وقال الألبانى فى الصحيحة(٩٥١) إسناده جيد .

يعور[1] فيما بينه وبين الله إلا عور الله ما بينه وبين العباد، ولمصانعة وجه واحد أيسر من مصانعة الوجوه كلها؛ إنك إن صانعت هذا الوجه مالت إليك الوجوه كلها، وإذا أفسدت شنعتك الوجوه كلها.

وبسنده إلى ابن توبة أبو جعفر عبد الله، قال: رأيت أبا بكر الآدمى القارئ فى النوم بعد موته بمد يده، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: وقفنى بين يديه وقاسيت شدائد وأموراً صعبة، فقلت له: فتلك الليالى والمواقف والقرآن. فقال: ما كان شىء أضر علىّ منها لأنها كانت للدنيا، فقلت: فإلى أى شىء انتهى أمرك، قال: قال لى: تعالى آليت[2] على نفسى أن لا أعذب أبناء الثمانين.

الباب السابع عشر
دفع فضول الفكر

اعلم أن الفكر يراد لاستدراك فارط، والنظر فى مصلحة مستقبلة، فإذا كان فيما لا يثمرها كان ضروراً وإذا كثر أنهك[3] البدن.

قال أبقراط: ينبغى للعلماء أن يتركوا الفكر وقتاً ما لئلا ينهك أبدانهم.

قلت: ولا يجوز للعاقل أن يخلى نفسه من الفكر، ولكن يكون فيمايتصور له نيله، فأما إذا تفكر العامى فى أن يكون خليفة، وأن ينال علم أبى حنيفة والشافعى، ثم يجمع بينه وبين زهد بشر ومعروف الكرخى، ويحصل مثل مال عبد الرحمن بن عوف.

فهذه أفكار تضنى[4] وتردى[5]، خصوصاً إذا قنع بالفكر، واستعمل

(١) يعور: أى يفسد.
(٢) آليت: أقسمت على نفسى.
(٣) أنهك: أى أضعف.
(٤) تضنى: تمرض.
(٥) تردى: تهلك.

الكسل عن الطلب. وإنما ينبغى أن يتفكر فيما تصل إليه قدمه، ويطمع لمثله فيه من الخير، ويتفكر فى جهاده للطبع فى دفع الشر، فقد تفكر خلق كثير من العصاة فى عواقبهم فتابوا، وكثير من الملوك فى غرور الدنيا فتزهدوا .

قال ابن عباس: ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه.

وبسنده إلى أم الدرداء، قيل لها: ما كان أفضل عمل أبى الدرداء؟ قالت: التفكر والاعتبار.

ووقف مالك بن دينار ليلة فى داره على قدمه إلى الفجر، فقال: ما زال أهل النار يعرضون على بسلاسلهم وأغلالهم إلى الصباح.

وقال بعض الحكماء: بترداد الفكر ينجاب [1] العمى .

---

(١) ينجاب : أى ينكشف.

الباب الثامن عشر

دفع فضول الحزن

اعلم أن العاقل لا يخلو من الحزن ؛ لأنه يتفكر فى سالف ذنوبه فيحزن على تفريطه ، وفيما قال العلماء والصالحون فيحزن لفوته .

وبسنده إلى مالك بن دينار قال : إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب كما أن البيت إذا لم يسكن خرب .

وبسنده إلى إبراهيم بن عيسى ، قال : ما رأيت أطول حزناً من الحسن ، وما رأيته قط إلا حسبته حديث عهد بمصيبة .

وبسنده إلى مالك بن دينار قال : بقدر ما تحزن للدنيا كذلك يخرج . هم الآخرة من قلبك .

وإذ قد تبين أن الحزن لا يزال ملازماً قلوب المتقين فينبغى أن يتقى إفراطه ؛ لأن الحزن إنما يكون على الفائت ، وقد عرفنا طريق الاستدراك .

وجاء فى الحديث : **«بقية عمر المؤمن لا قيمة له يستدرك فيه ما فات»** فإن كان المحزون عليه لا يمكن استدراكه لم ينفع الحزن ، وإن كان دينا فينبغى أن يقاومه برجاء الفضل والرحمة ليعتدل الحال . فأما إذا كان الحزن لأجل الدنيا وما فات منها فذلك الخسران المبين فليدفعه العاقل عن نفسه . وأقوى علاجه أن يعلم أنه لا يرد فائتاً ، وإنما يضم إلى المصيبة فتصير اثنتين ، والمصيبة ينبغى أن تخفف عن القلب ، وتدفع ، فإذا استعمل الحزن والجزع زادت ثقلاً .

قال ابن عمر : إذا استأثر الله بشيء فالهَ عنه ثم فى الخلف عن الفائت ما يسلى ، فإن عدم ما يسلى اجتهد فى صرف ذلك فى قلبه ، وليعلم أن الداعى إلى الحزن الهوى لا العقل ؛ لأن العقل لا يدعو إلى ما لا ينفع ، وليعلم أنه سيسلو بعد حين فليجتهد فى تقديم المؤخر ، وليرتح ما بين الزمانين ، ومما يمحق الحزن العلم بأنه لا يفيد والإيمان بالثواب ، ويذكر من أصابه أكثر من مصيبته .

الباب التاسع عشر

دفع فضول الغم والهم

الغم يكون للماضى، والهم للمستقبل، فمن اغتم لما مضى من ذنوبه نفعه غمه على تفريطه؛ لأنه يثاب عليه. ومن اهتم بعمل خير نفعته همته. فأما إذا اغتم لمفقود من الدنيا، فالمفقود لا يرجع والغم يؤذى، فكأنه أضاف إلى الأذى أذى، كما قلنا فى الحزن.

وينبغى للحازم أن يحترز مما يجلب الغم، وجالبه فقد المحبوب؛ فمن كثرت محبوباته كثر غمه، ومن قللها قل غمه.

فإن قال قائل: إذا لم أجد محبباً اغتممت؛ قيل له: صدقت، ولكن لا يبلغ غمك بالعدم معشار عشر غم من فقد المحبوب، ألا ترى أن من لا ولد له يغتم، ولكن لا كغم من أصيب بولده.

ثم أن الإنسان كلما طال ألفه لما يحبه واستمتاعه به تمكن من قلبه، فإذا فقده أحس من مر التألم فى لحظة لفقده بما يزيد على لذات دهره المتقدم. وهذا لأن المحبوب ملائم للنفس كالصحة، فلا تجد النفس لذتها إلا عند وجودها وفقدها مناف لها، ولذلك تألم بالفقد مالا تفرح بالموجود؛ لأنها ترى وجود المحبوب كالحق الواجب لها، فينبغى للعاقل تقليل الألفة؛ فإن اضطر إلى جوالب الغم، فأثمرت الغم، فعلاجه فى الأول الإيمان بالقدر، وأنه لابد مما قضى، ثم يعلم أن الدنيا موضعة على الكدر، فالبناء إلى النقض، والجمع إلى التفرق، ومن رام بقاء مالا يبقى كان كمن رام وجود مالا يجد فلا ينبغى أن يطلب من الدنيا مالم توضع عليه كما قال الشاعر:

طبعت على كدر وأنت تريدها صفواً من الإيذاء والأكدار

ثم يتصور ما نزل به مضاعفاً فيهون عليه حينئذ ما هو فيه.

ومن عادة الحمال الحازم أن يترك فوق حمله شيئاً ثقيلاً ، ثم يمشى خطوات ثم يولى به فيخف الأمر عنه ، ثم ليرتقب زمن العافية هجوم البلاء ، فإذا هجم ما يكرهه . وليتمثل كلما يتصور نزوله نازلاً ، فإذا نزل بعض ذلك كان ربحاً ، مثل أن يتصور أن يؤخذ ماله كله ؛ فإذا أخذ البعض عد الباقى غنيمة .

ويتصور أن يعمى ، فإذا رمد سهل الأمر ، وكذلك جميع المضرات ، قال الشاعر :

يمثل ذو اللب [1] فى نفسه	مصائبه قبل أن تنزلا
فإن نزلت بغتة لم ترعه [2]	لما كان فى نفسه مثلا
وذو الجهل يأمن أيامه	وينسى مصارع من قد خلا
فإن بدهته صروف الزمان	ببعض مصائبه أعولا [3]
ولو قدم الحزم فى أمره	لعلمه الصبر حسن البلا

قال بعض السلف : رأيت امرأة فتعجبت من نضارتها ، فقلت : هذا وجه ما طرقه حزن ، فقالت : لا تقل هذا فما أعرف من ناله ما نالنى ، كان لى زوج فاشترى أضحية ، فذبحها وله ولدان ، فقال الأكبر للأصغر : تعال حتى أريك كيف ذبح أبى الشاة فذبحه ، فلما طلبناه هرب فخرج الأب فى طلبه فهلكا ، فقلت : وكيف حزنك ؟ قالت : لو وجدت فى الحزن دركا لاستعملته .

---

(١) ذو اللب : أى ذو العقل .

(٢) لم ترعه : لم تفزعه .

(٣) بدهته : البداهة : أول كل شىء وما يفجأ من الأمر أى فجأته (لسان العرب : بده) ، صروف : حوادث - أعول : رفع صوته بالبكاء .

فصل

وقد يقع الحزن والغم من غلبة السوداء ، فيعالج بما يزيل السوداء بالمفرحات . والغم يجمد الدم ، والسرور يلهب الدم ، حتى تعلو حرارته الغريزية ، وجميعاً يضران وربما قتلا إن لم يعجل تفتيرهما .

الباب العشرون

دفع فضول الخوف والحذر من الموت

الخوف والحذر إنما هما للمستقبل ، والحازم من أعد للخوف عدته قبل وقوعه ، ونفى فضول الخوف مما لابد منه ، إذ لا ينفعه خوفه منه .

وقد اشتد الخوف من الله تعالى بكثير من الصالحين ، حتى سألوا الله تعالى تقليل ذلك . والسبب فى سؤالهم أن الخوف كالسوط فإذا ألح بالسوط على الناقة قلقت . وإنما ندب به المتوانى .

بسنده إلى سفيان الثورى ، قال لشاب يجالسه : أتحب أن تخشى الله حق خشيته ؟ قال : نعم ، قال : أنت أحمق ، لو خشيته حق خشيته ما أديت الفرائض .

فصل : خوف مالا بد أن يأتى زيادة أذى

ولا ينبغى للعاقل أن يشتد خوفه من نزول المرض ، فإنه نازل لابد ، وخوف مالا بد أن يأتى زيادة أذى .

فأما الخوف من الموت والفكر فيه ، فإنه لا سبيل إلى دفعه عن النفس ، وإنما يخفف الأمر العلم أنه لابد منه ، فلا يفيد الحذر إلا زيادة على المحذور . وكلما تصورت شدته كانت كل تصويره موتاً . فليصرف الإنسان فكره عن تصور الموت ليكون ميتاً مرة لامرات ويكون صرف الفكر ربحاً .

وليعلم أن الله تعالى قادر على تهوينه إذا شاء ، وليوقن بأن ما بعده أخوف منه ؛ لأن الموت قنطرة إلى منزل إقامة وإنما ينبغى للإنسان أن يكثر من

ذكر الموت ليعمل له لا لنفس تصويره وتمثيله ، فإن خطر على القلب الحزن على فراق الدنيا ، فعلاج ذلك أن يعلم أنها ليست بدار لذة ، وإنما لذاتها راحة من مؤلم . ومثل هذا لا ينافس فيه ؛ فإن حزن العاقل على فراق الدنيا لفوت العمل الصالح ، فقد كان السلف يحزنون لذلك .

قال معاذ بن جبل عند موته : اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى [1] الأنهار ولا لغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر [2] ، ومكابدة [3] الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر .

فصل

ومن نزل به الموت : فليعلم أنها ساعة تحتاج إلى معاناة صعبة ؛ لأن صورتها ألم محض ، وفراق المحبوبات ، ثم ينضم إلى ذلك هول السكرات ، والخوف من المآل .

ويأتى الشيطان فيسخط العبد على ربه ويقول : انظر فى أى شىء ألقاك ، وما الذى قضى عليك ، وكيف يؤلمك ؟ وها أنت تفارق ولدك وأهلك وتلقى بين أطباق الثرى [4] !

فربما أسخطه على ربه ، وكره قضاء الله تعالى إليه ، وأنطقه بكلام يتضمن نوع اعتراض ، وربما حسن إليه الجور [5] فى الوصية ، وأن يزوى [6] لبعض الورثة ، إلى غير ذلك من المحن [7] . فتعين حينئذ الحاجة إلى معالجة إبليس ومعالجة النفس .

---

(١) كرى : حفر . كما فى القاموس .

(٢) الهواجر : الهاجرة : نصف النهار عند اشتداد الحر ويقال : طبخته الهاجرة أى يقصد كثرة الصوم .

(٣) مكابدة : كابد الأمر كبادا ومكابدة : قاسى شدته (لسان العرب : كبد) .

(٤) الثرى : التراب

(٥) الجور : الجور فى الوصية تعدى عليه وظلمه .

(٦) يزوى : زوى للشىء : جمعه (لسان العرب : زوى) .

(٧) محنة : مفردها المحنة : البلاء الشديد (لسان العرب : محن) .

وقد نقل أبو داود من حديث أبى اليسر ، عن النبى ﷺ أنه كان يقول : **«أعوذ بك أن يتخبطنى[1] الشيطان عند الموت»**[2] .

وفى تلك الساعة يقول الشيطان لأعوانه : إن فاتكم الآن لم تقدروا عليه أبداً .

فأما العلاج لتلك الشدائد ، فينبغى أن نذكر قبله مقدمة ، وهو أن من حفظ الله فى صحته حفظه الله فى مرضه ، ومن راقب الله فى خطراته حرسه الله عند حركات جوارحه .

وفى حديث ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال : **«احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة»**[3] .

ثم قد سمعت قصة يونس عليه السلام لما كانت له أعمال خير متقدمة انتاشته من شدته ، فقال تعالى : **﴿فلولا أنه كان من المسبحين. للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون﴾**[4] .

ولما لم يكن لفرعون عمل خير لم يجد وقت الشدة متعلقاً فقيل له : **﴿آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾**[5] .

وكان عبد الصمد الزاهد يقول عند الموت : سيدى لهذه الساعة خبأتك .

فأما من ضيع فى صحته ، فإنه يضيع فى مرضه ، كما نقل عن بعض

(١) يتخبطنى : خبط للشيطان فلاناً : أصابه بشىء فى الجنون والصرع (لسان العرب : خبط) .

(٢) **إسناده صحيح** : رواه أبو داود (١٥٥٢) والنسائى(٨/ ٢٦٣) أحمد(٢/ ٣٥٦ ، ٣/ ٤٢٧) صححه الألبانى فى صحيح أبو داود .

(٣) **إسناده صحيح** : رواه الترمذى (٢٥١٦) وقال : هذا حديث حسن صحيح . وأحمد (١/ ٢٩٣) .

(٤) سورة الصافات : الآية : ١٤٣ ، ١٤٤

(٥) سورة يونس : الآية : ٩١ .

الصحابة أنه رأى شيخاً يطلب من الناس ، فقال : هذا ضيع أمر الله فى صغره، فضيعه الله فى كبره .

فأما نفس العلاج فينبغى أن تشجع النفس ، وتقول لها : إنما هى ساعة . ثم أرجو كمال الراحة ، كما قال عليه السلام : « لاكرب على أبيك بعد اليوم»[1] .

ودعى أبو بكر بن عياش عند الموت إلى الرجاء ، فقال : كيف لا أرجه، وقد صمت له ثمانين رمضان .

وقال المعتمر بن سليمان : قال لى أبى : يابنى اقرأ علىّ أحاديث الرخص لعلى ألقى الله وأنا حسن الظن به .

فينبغى للمؤمن أن يرمى صوت الخوف، ويحدو الناقة[2] كما قال حادى البادية :

بشرها دليلها وقالا غداً ترين الطلح[3] والجبال

بسنده إلى أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدى بى » متفق عليه[4] .

بسنده إلى جابر ، قال سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاث يقول : «لا يموت أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن » أخرجه مسلم[5] .

وقال الفضيل بن عياض : الخوف أفضل من الرجاء ، فإذا نزل الموت

---

(١) رواه ابن ماجه (١٦٢٩) وقال فى الزوائد : فى إسناده عبد الله بن الزبير الباهلى مختلف فيه، وبقية رجاله على شرط الشيخين.

(٢) يحدو الناقة : يغنى لها، وتسرع فى السير.

(٣) الطلح : شجر عظام

(٤) **متفق عليه** : رواه البخارى (٧٤٠٥)و مسلم (٢٦٧٥)

(٥)رواه مسلم (٢٨٧٧/ ٨١، ٨٢) ومعناه أى قادر على أن أعمل به ما ظن أنى عامل به

فالرجاء أفضل .

قلت : وهذا صحيح لما بينا من أن الخوف سوط يساق به المتوانى ، فإذا كلّ[1] البعير لم يبق إلا الرفق .

فإن قيل : فما تقول فى خوف عمر بن عبد العزيز عند الموت ؟

فالجواب : أنه لما تعلقت به حقوق الرعية خاف من مطالب طبعه مبنى على الشح كان يقول : إنما أخاف ولايتكم هذه ، على أنه قد كان يتمسك بأذيال الرجال ، فإن ابن عباس لما قال له : أبشر يا أمير المؤمنين وليت فعدلت ثم شهادة ، فقال : أتشهد لى بهذا عند الله يا بن عباس ؟

فصل : اشتداد المصيبة يكفر الذنوب

فإن اشتد بالمريض كرب[2] ، فليحسب ذاك فى باب الأجر ؛ فقد كانوا يستحبون للمريض شدة النزع ليكفر ذلك عنه الذنوب .

بسنده إلى إبراهيم ، قال : كانوا يستحبون أن يجهدوا عند الموت .

وذكر بسنده عن عمر بن عبد العزيز قال : ما أحب أن تهون علىّ سكرات الموت أنه آخر ما يكفر به عن المرء المسلم .

فصل : ما ينبغى للمريض عند الموت

وينبغى للمريض ما دام ثابت العقل أن يتوب ليلقى الله طاهراً من كل ذنب ، وأن يجرد وصيته ، وأن يسلم أهله وولده إلى الله سبحانه وتعالى ؛ فإنه يتولى الصالحين .

فصل : الخوف من الموت بمقدار

فإن أزعجه الشيطان بذكر البلى ، فليعلم أن البلى واقع على المركب ، والراكب قد رحل ، وليعلم أن الشريعة قد مضت بوصول المؤمن بعد الموت

---

(١) كل : تعب وأرهق

(٢) كرب : الغم .

إلى النعيم الدائم ، فمن حقق الإيمان ، لم يحزن ؛ لأن مآل المؤمن إلى الخير . ومن لم يتحقق الإيمان ، فليحزن لفقد التحقيق .

وبسنده إلى كعب ، عن النبى ﷺ قال : «نسمة المسلم طير تعلق فى شجر الجنة حتى يرجعها الله إلى جسده»[1] .

ومقصودنا من هذا الباب أن يكون الخوف من الموت بمقدار ؛ لئلا ينهك البدن ، ويبالغ فى الأذى ، وأن يخاف لما بعد الموت فيعمل له .

الباب الحادى والعشرون

دفع فضول الفرح

إذا اشتد الفرح التهب الدم ، وذلك يضر ، وربما قتل إن لم يعدل ، وينبغى للإنسان إذا رأى أسباب الفرح أن يدرج نفسه إليه ، فإن يوسف عليه السلام لما التقى بأخيه سأله : هل لك من أب ؟ لم يزل يلاطفه لئلا يفجأه بالسبب المفرح .

الفرح ينبغى أن يكون بمقدار ليعدل الحزن ، فأما إذا أفرط ، فإنه دليل على الغفلة القوية إذ لا وجه للفرح عند العاقل ، فإنما يفرح بالطبع لما يفرح ، ثم يذكر مصيره وخوف مآله ، فينمحى ذلك الفرح ، ومتى قويت غفلة الفرح حملت إلى الأشر والبطر ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿لا يحب الفرحين﴾ [2]، يعنى الأشرين الذين خرجوا بالفرح إلى البطر .

وعلاج شدة الفرح بالفكر فيما قد سلف من الذنوب وفيما بين يدى العبد من الشدائد .

وقد قال الحسن البصرى : فضح الموت الدنيا ؛ فلم يترك لذى لب بها فرحاً .

---

(١) رواه النسائى في الجنائز رقم(١١٧)وأحمد (٣/ ٤٥٥) وابن ماجة (٤٢٧١)و مالك في الجنائز رقم(٤٩) وابن حبان (٧٣٤) وصححه وقال الألبانى فى رواية أحمد: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين وعزاه للترمذى(١/ ١٠٩) وقال حديث حسن صحيح . انظر الصحيحة(٩٩٥) .

(٢) سورة القصص الآية : ٧٦ .

الباب الثانى العشرون

دفع الكسل

الموجب للكسل حب الراحة ، و إيثار البطالة ، وصعوبة المشاق .

وفى الصحيحين من حديث أنس بن مالك : أن النبى ﷺ كان يكثر أن يقول : «**اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن و العجز والكسل**»[1] .

وفى أفراد مسلم من أفراد أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : «**المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ، ولا تعجز ؛ فإن أصابك شيء فلا تقل : لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ؛ فإن (لو) يفتح عمل الشيطان**»[2] .

وقال ابن مسعود : إنى لأبغض الرجل أراه فارغاً ليس فى شيء من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة .

وقال : يكون فى آخر الزمان أقوام أفضل أعمالهم التلاوم[3] بينهم ، يسمون الإتيان .

وقال ابن عباس : تزوج التوانى بالكسل ، فولد بينهما الفقر .

وقال مالك بن دينار : مامن أعمال البر شيء إلا ودونه عقبة ، فإن صبر صاحبها أفضت به إلى روح ، وإن جزع رجع .

قال سفيان الثورى : مضى القوم على الخيل العتاق[4] وبقينا على حمر دبرة[5] .

---

(١) **متفق عليه** : رواه البخارى (٢٨٩٣) ومسلم(٢٧٠٦، ٢٧٢٢)

(٢)رواه مسلم(٢٦٦٤) والمراد بالقوة: عزيمة النفس فيكون صاحبها أكثر إقداماً على العبادات

(٣) التلاوم : تلاوموا : لام بعضهم بعضاً (لسان العرب : لوم).

(٤) الخيل العتاق : الكرم

(٥) حمر دبرة :أى حمر مجروحة فى ظهرها .

فصل : علاج الكسل

وعلاج الكسل تحريك الهمة بخوف فوات القصد ، وبالوقوع فى عقاب اللوم ، أو بالحصول فى بيد التأسف ؛ فإن أسف المفرط إذا عاين أجر المجتهد أعظم من كل عقاب .

وليفكر العاقل فى سوء مغبة الكسل ، فرب راحة أوجبت حسرات وندماً .

ومن رأى جاره قد سافر ، ثم عاد بالأرباح ، زادت حسرة أسفه على لذة كسله أضعافاً . كذلك إذا برع أحد الرفيقين فى العلم ، وتكاسل الآخر .

والمقصود أن ألم الفوات يربو على لذة الكسل .

وقد أجمع الحكماء على أن الحكمة لاتدرك بالراحة ، فمن تلمح ثمرة الكسل اجتنبه ، ومن مد فطنته إلى ثمرات الجد نسى مشاق الطريق .

ثم إن زمان العمل بالإضافة إلى مدة البقاء فى القبر كلحظة ، ثم إضافة ذلك إلى البقاء السرمدى إما فى الجنة وإما فى النارليس بشىء .

ومن أنفع العلاج النظر فى سير المجتهدين ، فالعجب من مؤثر البطالة فى موسم الأرباح ، وتارك الاستلاب وقت النثار .

بسنده إلى فرقد ، قال : إنكم لبستم ثياب الفراغ قبل العمل ، ألم تروا إلى الفاعل إذا عمل كيف يلبس أدنى ثيابه ، فإذا فرغ اغتسل ولبس ثوبين نقيين، وأنتم لبستم ثياب الفراغ قبل العمل .

الباب الثالث والعشرون

تعريف الرجل عيوب نفسه

اعلم أن النفس محببة ، وعيوب المحبوب قد تخفى على المحب ، وفى الناس من يقوى نظره وجهاده للنفس ، فينزلها منزلة العدو فى المخالفة ،

فيظهر له عيوبها .

قال إياس بن معاوية : من لم يعرف عيب نفسه فهو أحمق . فقيل له فما عيبك ؟ قال : كثرة الكلام . وهذا أمر نادر .

والعمل على الغالب ، فإن الغالب أن يخفى الإنسان عيوب نفسه ، ولسنا نريد أنه لا يعرف عيباً ، فإن العاقل إذا أتى عيباً عرفه ، وإنما غرضنا العيوب الباطنة ، فإنها كالأمراض الباطنة التى لا يعلم بها الطبيب ، فيصف لها دواء ولا عليها إمارة ، ومحبة الإنسان لنفسه تمنعه أن يرى العيب الخفى عيباً كما قال الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا

وقد روى أن رجلاً صحب رجلاً ، فلما أراد أن يفارقه ، قال له : أخبرنى عن عيوبى ، فقال : سل غيرى ، فإنى كنت أراك بعين الرضا .

فإن قيل : فإذا كانت العيوب باطنة والإنسان لا يراها عيوباً .

فكيف الطريق إلى تعرفها ؟ فالجواب أن لذلك سبع طرق :

الطريق الأول : أن يتخير صديقاً من أعقل مخالطيه ، ويسأله إبانة ما يرى من قبيحه ، ويعرفه أن ذلك منة منه عليه ، فإذا أخبره ابتهج بما سمع منه ، ولم يظهر له الحزن على ذلك ؛ لئلا يقصر فى شرح الأمور ، ويقول له : متى كتمتنى شيئاً عددتك غاشاً .

والطريق الثانى : أن يبحث عما يقوله فيه جيرانه وإخوانه ومعاملوه ، وبماذا يمدحونه أو يذمونه .

الطريق الثالث : أن يتطلع إلى ما يقول فيه الأعداء ، فإن العدو بحاث عن العيوب . ومن هذا الوجه ينتفع الإنسان بعدوه مالا ينتفع بصديقه ؛ لأن العدو يذكر النقص ، والصديق يستر الخلل ، فإذا عرف الإنسان من طريق عدوه نقصه اجتنبه .

والطريق الرابع : أن يصور أفعاله فى غيره ، ثم يستعمل منها ما يستحسن ، ويترك ما يستقبح .

والطريق الخامس : أن يعمل فكره فى عواقب خلاله وثمراتها ، فيرى عيب العيب ، وحسن الحسن ، فإن الفكر الصادق نافذ .

والسادس : أن يعرض أعماله على محك الشرع ، ويريها نافذ العقل ، ويضعها فى موازين العدل ، فإنه يرى الأرجح والأدون .

والسابع : أن ينظر فى سير العاملين ، ثم يقيس أفعاله بأفعالهم ، فيرى حينئذ أن آثار النقص عيب فيجتنبه ، فضلاً عن فعل القبيح .

الباب الرابع والعشرون

تنبيه الهمة الدنية

إذا كانت الهمة الدنية طبعاً لم ينجع[1] فيها العلاج ، فإن كانت مكتسبة بصحبة الأدنياء ، أو لغلبة الطبع والهوى ، فعلاجها قريب .

وذلك من جوه .

منها : مقاطعة أهل الدناءة أنفة منهم ، ومواصلة أرباب الهمم العالية .

ثم التفكر بالعواقب ، ومآل الدناءة، ومصير أولى الجد والاجتهاد ، كما قال عبد الصمد : مات رجل من السعاة ، وقد بقى له شرط، الناس يقولون له : مت اليوم تحى أبداً . فانتبهت بها .

ومن تفكر فى المرتفعين فى الهمم علم أنهم كهو من حيث الأصلية والآدمية ، غير أن حب البطالة والراحة جنيا عليه فأوثقاه ، فساروا وهو قاعد، ولو حرك قدم العزم لوصل ، قال الشاعر :

إذا أعجبتك خصال امرئ	فكنه تكن مثل ما أعجبك
فليس على الجد المكرمات	إذا جئتها حاجباً يحجبك

ومن نظر فى أخبار السلف رأى عموم الفقهاء والعلماء ، وأكثر المشار إليهم بذلك من الموالى ومن الضعفاء وأهل الحرف الدنية ، إلا أن الهمم أثرت فأثارت عن موطن .

---

(١) لم ينجع : لم ينجح ولم يؤثر

ولو تفكر أرباب الهمم الدنية فى عواقبها ، وما يجيء عليهم لرأوا البطالة عدواً ، وإنما صحبوا دناءة الهمة تعجلاً للراحة وما يلقونه من الحسرات على فوت الفضائل والسقوط من أعين الناس والإهانة بهم أعظم من كل كرب وشدة .

وما يناله أرباب التعب من الراحة فى تعظيم الخلق لهم وارتفاع قدرهم فى الدنيا قبل الآخرة ينسى مرارة كل نصب [1] . فكأنه ما تعب من استراح من ولا استراح من تعب .

بسنده إلى أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «**يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار ، فيصبغ [2] فى النار صبغة ، ثم يقال له : يا ابن آدم ، هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟فيقول : لا والله يارب .ويؤتى بأشد الناس بؤساً فى الدنيا من أهل الجنة ، فيصبغ فى الجنة صبغة ، ثم يقال له : يابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مرت بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله يارب ، ما مر بى بؤس قط ولا رأيت شدة قط**»[3] .

وبيان هذا أن التعب ينقضى ، وتبقى الراحة ، والراحة تذهب ، وتبقى الحسرة ، والمقام موسم ، والفوات معترض ، والاستلاب عاجل ، وفى بعض هذا إزعاج للمتوانى .

الباب الخامس والعشرون
رياضة النفس

الأصل فى الأمزجة الصحة ، والعلل طارئة ، وكل مولود يولد على الفطرة .

و يوضح ماقلناه أن الرياضة لا تصلح إلا فى نجيب[4] ، والكودن لا تنفعه الرياضة ، والسبع وإن ربى صغيرا لا يترك الافتراس إذا كبر .

---

(١) نصب : تعب وإجهاد

(٢) صبغ الشيء : أى يغمس كما يغمس الثوب فى الصبغ (لسان العرب : صبغ) .

(٣) رواه ومسلم (٢٨٠٧) .

(٤) نجيب : كريم

وقد عرفت تلك الحكاية : (فمن أنباك أن أباك ذئب)

واعلم أن فى الإنسان قوى ثلاثة : قوة ناطقة ، وقوة شهوانية ، وقوة غضبية ، فينبغى لمن شرفه الله تعالى بحب العلم أن يعتنى بتكميل النفس الناطقة التى فضله الله تعالى بها على سائر الحيوانات ، وشارك بها الملائكة ، فيجعلها هى المسلطة على القوتين الأخريين ، أعنى الشهوانية والغضبية ، لتكون منزلتها فى البدن بمنزلة الراكب للفرس ، فإن الفارس ينبغى أن يكون هو المسلط على الفرس لاستعلائه ، فيمضى بها أين يشاء ، ويعقها إذا شاء . فكذلك ينبغى أن تكون القوة الناطقة هى المستعلية على باقى القوى ، تستعملها كما تحب ، وتكفها حين تحب .

ومن كان كذلك استحق أن يسمى إنساناً حقيقة .

قال أفلاطون : الإنسان بالحقيقة من كانت نفسه الناطقة أقوى الأنفس ؛ لأن الشهوانية إذا أفرطت خرج الإنسان إلى طبع البهيمية ، ومن سيب هواه فى مرعاه ، جعل حبله على غاربه ، فقد خرج عن مركزه ، فصار أخس من البهائم ؛ لأن تلك تمضى بطباعها . وهذا قد خالف طبعه . ومتى أفرطت القوة الغضبية خرج الإنسان إلى أخلاق السباع والضوارى . فينبغى أن يروض نفسه بمخالفة الشهوانية ، ويكسر الغضبية ، ويتبع القوة الناطقة ؛ حتى يتشبه بالملائكة ، ويتحرز من عبودية الشهوة والغضب .

فصل

واعلم أن الرياضة للنفس تكون بالتلطف ، والتنقل من حال إلى حال ، ولا ينبغى أن يؤخذ أولاً بالعنف ، ولكن بالتلطف ، ثم يمزج الرغبة والرهبة .

ويعين على الرياضة صحبة الأخيار ، والبعد عن الأشرار ، ودراسة القرآن ، والأخبار ، وإجالة الفكر فى الجنة والنار ، ومطالعة سير الحكماء والزهاد .

وقد كان بعض السلف يشتهى الحلواء فيعدها لنفسه ، فإذا صلى بالليل أطعمها .

وكان الثورى يأكل ما يشتهى ، ثم يقوم إلى الصباح ، ويقول : أطعم الزنجى ولده . وما زال المحققون يلطفون بنفوسهم إلى أن ملكوها فقهروها .

وقال بعض جيران مالك بن دينار : سمعته ليلة يقول لنفسه : هكذا فكونى ، فلما أصبحت قلت له : ما معك فى الدار أحد فلمن قلت ؟

قال : إن نفسى طلبت منى أدما [1] وألحت ، فمنعتها الطعام ثلاثة أيام ، فلما كانت الليلة وقد انقضت الأيام وجدت كسرة يابسة ، فبادرت إليها ، فقلت : قفى آتيك بخبز لين ، فقالت : قنعت بهذه . قلت : هكذا فكونى .

واعلم أنه إذا علمت منك النفس الجد جدت ، وإذا عرفت منك التكاسل طمعت فيك ، كما قال الشاعر :

ويعرف أخلاق الجواد جواده فيجهده كراً ويرهقه ذعراً

ومن الرياضة لها محاسبتها على كل فعل وقول ومحاسبتها فى كل تقصير وذنب ، فإذا تمت رياضتها حمدت ما ذمت من تعبها .

قال ثابت البنانى : كابدت الليل عشرين سنة ، وتنعمت به عشرين سنة .

قال أبو يزيد : ما زلت أسوق نفسى إلى الله تعالى وهى تبكى حتى سقتها وهى تضحك . وفى هذا المعنى قول الشاعر :

مازلت أبكى كلما نظرت

إلى أن اختضبت أجفانها بدمى

وبعد هذا فلا ينبغى أن ينسى حقها ، فإن من حقها إعطائها حظوظها التى لا تقدح فى مقصود الرياضة ، فإنها إذا منعت مقاصدها فى الجملة عمى القلب ، وتشتت الهم ، وتكلف التعبد .

واعلم أن قدر النفس عند الله سبحانه أعظم من قدر العبادات .

ولهذا أباح الفطر للمسافر ، وإنما يعقل هذا العلماء .

---

(١) أدماً : ما يستمرأ به الخبز (لسان العرب : آدم) .

الباب السادس والعشرون
ذكر رياضة الأولاد

أقوم التقويم ما كان فى الصغر ، فأما إذا ترك الولد وطبعه فنشأ عليه ومرن كان رده صعباً ، قال الشاعر :

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت

ولا يلين إذا قــومــتــه الخــشب

قد ينفع الأدب الأحداث فى مهل

وليس ينفع فى ذى الشـيـبـة الأدب

ثم المواظبة على الرياضة أصل عظيم ، خصوصاً فى حق الصبيان ، فإن ذلك يفيدهم أن يصير الخير عادة ، قال الشاعر :

لا تسه عن أدب الصغيـ ـر وإن شكا ألم التعب

واعلم أن الطبيب ينظر إلى سن المعالج ومكانه وزمانه ، ثم يصف ، فكذلك ينبغى أن تكون رياضة كل شخص على قدر حاله .

وأمارة فلاح الصبى وفساده تتبين من طفولته ، فالنجيب منهم يتنبه بالتعلم ، والذى ليس بنجيب لا ينفعه التعلم ، كما لا يصير الهجان[1] بالرياضة نجيباً ، وينبغى أن يتلطف بالصبى .

قال رجل لسفيان الثورى : نضرب أولادنا على الصلاة . قال : بل بشرهم .

كان زبيد اليافى يقول للصبيان : من صلى منكم فله خمس جوزات .

وقال إبراهيم بن أدهم : أى بنى اطلب الحديث ، فكلما سمعت حديثاً فلك درهم ، فطلب الحديث على هذا .

(١) الهجان : من الإبل للبيض الكرام ، يستوى فيه المذكر والمؤنث والجمع . (لسان العرب : هجن)

فصل : نصائح فى تربية الطفل

وليعلم الوالد أن الولد أمانة عنده ، فليجنبه قرناء السوء من الصغر ، ولا يعوده ، وليلق إليه الخير ، فإن قلبه فارغ يقبل مايلقى إليه ، وليحبب إليه الحياء والسخاء ، ليلبسه الثياب البيض ؛ فإن طلب الملون قال له : تلك ملابس النساء والمخانيث .

وليبادر بأخبار الصالحين ، وليجنبه أشعار الغزل ؛ لأنها بذر الفساد ، ولا يمنع من أشعار السخاء والشجاعة ليمجد وينجد [(١)] ؛ فإن أساء تغافل عن إساءته ، ولا يهتك مؤدبه ما بينه وبينه من الستر ، ولا يوبخ إلا سراً ، ويمنع من كثرة الأكل والنوم ، ويعود الخشونة فى المطعم والمفرش ؛ فإنه أصح لبدنه ، ويعالج بالرياضات الجسمانية ، كالمشى ، ويؤدب بالنهى عن استدبار الناس ، والامتخاط بينهم ، والتثاؤب ؛ فإذا علقت به خلة قبيحة بولغ فى ردعه عنها قبل أن تتمكن .

ولا بأس بضربه إذا لم ينفع اللطف ، فقد قال لقمان لابنه : يابنى ضرب الوالد للولد مثل السماد للزرع .

وإذا رآه عرماً فى صغره ، فليتلطف به ، فقد قال ابن عباس : عرامة[(٢)] الصبى زيادة فى عقله .

فصل : لا ينبغى أن يضرب الابن بعد بلوغه

وكان الحكماء يقولون : ابنك ريحانتك سبع سنين ، وخادمك سبع سنين ، فإن صار ابن أربع عشرة سنة ، فإن أحسنت إليه فهو شريك؛ وإن أسأت إليه فهو عدوك .

ولا ينبغى أن يضرب بعد بلوغه ، ولا أن يساء إليه ، لأنه حينئذ يتمنى فقد الوالد ليستبد برأى نفسه ومن بلغ عشرين سنة لم يصلح فبعيد صلاحه إلا أن الرفق متعين بالكل .

---

(١) ينجد : يصير ذا شجاعة فهو نجد (لسان العرب : نجد) .

(٢) عرامة : شدة وشراسة (لسان العرب : عرم) .

الباب السابع والعشرون
رياضة الزوجة ومداراتها

من المتعين المبالغة فى النظر به هذا الباب ، فأصلح الأمور أن يتزوج الرجل البكر التى لم تعرف سواه .

فقد قالت الحكماء : البكر لك ، والثيب عليك .

إلا أنه من أعظم الغلط أن يتزوج الشيخ الكبير طفلة ؛ فإنها تصير كالعدو ، ولكنه يحبسها عن أغراضها ، ولا تقدر أن تفى مرادها ، وهى تنفر عن الشيخ طبعاً . فإن ابتلى الإنسان بذلك ، فليسم بغضة عندها بحسن خلقه واحتماله وكثرة الإنفاق عليها .

وقد أمعنا الشرح لهذه الجملة فى كتاب الشيب ، وينبغى أن يتزين لها كما يحب أن تتزين له ، ويستر جسده عنها ، فلا ترى منه إلا المستحسن ، كذلك ينبغى لها أن تفعل .

فصل : معاملة الرجل لامرأته

ولا ينبغى للرجل أن يمزح مع المرأة ، فتطمع فيه طمعاً يخرجها عن طاعته ، ولا أن يسلم ماله إليها فيصير هو كالرهن فى يدها فربما استغنت ، واستوثقت لنفسها ، ثم تركته . وقد قال الله تعالى : ﴿**ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً**﴾ [1]، بل ينبغى أن يمزح بنوع من الهيبة .

فصل : علاج لإصلاح المرأة

وأكثر العلاج فى إصلاح المرأة منعها من محادثة جنسها ، ومن خروجها من بيتها ، واطلاعها من ذروته ، وأن تكون عنده عجوز تؤدبها ، وتلقنها تعظيم الزوج ، وتعرفها حقوقه ، وتعظم قليل الإنفاق عندها ، وتكون كالحافظ ، فإن عقل الصبى مأفون[2] .

---

(١) سورة النساء : الآية : ٥

(٢) مأفون : ناقص

فصل : اختيار المرأة المناسبة للشيخ

إن وجد الشيخ امرأة قد خرجت عن زمان الصبا ، ولم تدخل فى الكهولة ، كانت أصلح ، وأطيب لعيشه ، وأقل امتناناً عليه ، وأكثر توقيراً له .

فصل : وأما الشاب

فأما الشاب ، فإنه يدل ولا يذل ، فإذا أراد التمتع بالنساء ، فالرأى له إن كان له مكنة اشترى الجوارى الصغار ، فإنهن لم يعرفن الغيرة ، وهى قليلة عندهن لموضع الملكة ، وقدرته على الاستبدال والبيع ، ولتكن معهن حافظة ، ولتكن على الحافظة حافظة .

فصل

ومن رزق امرأة على مراداته ، فليهب ما فات لما حصل ؛ فإن الأصول إذا كانت محفوظة لم تذكر الفروع ، وكثرة النساء تحتاج إلى مؤنات عظام ، أقلهن حفظهن .

الباب الثامن والعشرون
رياضة الأهل والمماليك ومداراتهم

اعلم أن الأهل إذا رأوك قد فقتهم بمال أو جاه حسدوك ، ومقاطعتهم محرمة ، فالمداراة لازمة ، وذلك بالبر لهم مع كتمان باطن الأحوال عنهم .

ومن أعظم الغلط حرمان بعضهم ، وإعطاء البعض ، فمن اختار ذلك فليجتهد فى إسرار الأمر لئلا يشترى بالمنع البغض .

وأما المماليك فإنهم مالكون على الحقيقة لمالكيهم ؛ لأن المطاعم والمشارب إليهم ، فينبغى أن يتلطف بهم لئلا يحتالوا على القتل .

قال بزر جمهر : نحن ملوك على رعيتنا ، وخدمنا ملوك على أرواحنا ، ولا حيلة لنا فى الاحتراز منهم، فنحن نداريهم .

وليجعل الملك مع اللطف بهم هيبة إلا أن البر لهم يكون أغلب ، وأكثره

فى حق من يسلم إليه الروح ، وهو صاحب المطعم والمشرب .

واعلم أن المماليك وإن كانوا أهل ذكاء وفطنة يستتر منك عنهم شىء ، فربما احتالوا عليك . وإن كانوا أهل غباوة لم تبلغ غرضاً فى استخدامهم ، لأنك تريد الشىء فلا يفهمون مرادك .

والصواب استخدام أهل الغفلة منهم فى الداخل ، وأهل الذكاء منهم خارج البيت فحينئذ تتم الأغراض .

فصل : خطر دخول المراهق البيت

ومن أعظم الغلط دخول المملوك المراهق إلى البيت ، خصوصاً إن كان حسن الصورة ، وفى البيت نسوة ، فإن الشر لا يؤمن ، فإن سلمن من ميل إليه لم يسلم هومن ميل . وكذلك من باب المخاطرات ترك الولد البالغ بين الجوارى . ومعلوم أن قوة الشهوة وجهل الصبا ينسيان مقدار الحرمة والتحريم .

فهذه أصول ينبغى أن يداوى بدوائها ، ولا تمهل ؛ فإنها تجر أموراً صعبة .

الباب التاسع والعشرون
معاشرة الناس ومداراتهم

لما كانت طباع الناس تختلف ، كانت مداراتهم لذلك صعبة ؛ فأصلح ما استعمل العاقل العزلة عنهم مهما أمكن ؛ فإنها راحة عظيمة ، فإذا اضطر إلى مخالطتهم بالتلطف ، وإيفائهم الحقوق ، وإهمال حقه عليهم ، والحلم عن جاهلهم ، والعفو عن ظالمهم ، وإيثار متكبرهم بالمجلس .

ومن أعظم ما يملكهم به السماح والعطاء ، فإنه يسترق به من لم يكن ينقاد . وقد جاء فى الحديث «**مداراة الناس صدقة**» [1] .

---

(١) **إسناده ضعيف**: رواه الطبرانى وأبو نعيم وابن السنى والقضاعى وابن حبان كما قال السخاوى فى المقاصد الحسنة(٥٠٨) وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع(٥٢٥٥)

فصل :ما ينبغى للعالم فى تعامله مع السفهاء

وإذا ابتلى العالم بمخالطة العوام ، فينبغى أن يلبس جنة [1] الحذر ؛ فإن أغراضهم مختلفة ، يرضى أحدهم ما يسخط الآخر ، ويغضب من الصواب لأنه يراه خطأ ، ولا يقبل مع جهله أقوال العلماء .

فليبعد العالم عنهم ما استطاع ؛ فإن مخالطتهم تشينه وتنقص من مقداره فى أعينهم ، فيهون علمه عندهم . ولو رآه عاص يضحك أو يأكل أو سمع أنه قد تزوج لم يبق له عنده قدر فالحذر الحذر منهم فإنهم قتلة الأنبياء .

فإذا اضطر إلى مجالستهم فليقلل الكلام معهم، وليتكلم بما لا تسلق لهم به عليه، ولا فيه احتمال لما لا يصلح لخطابهم، وبعد هذا فالسلامة منهم طريفة

الباب الثلاثون

ذكر السيرة الكاملة

علامة الكامل تربية القدرة له من الطفولة ، وإعطاؤه الرأى التام ، والعقل الوافر من الصغر ، كما قال تعالى : ﴿**ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل**﴾[2]، وتخلق له همة عالية وشرف نفس ، فتحمله على طلب المعالى ، وتمنعه ركوب الدنايا ، فتنزله فى نكبة يحب أن يكون رئيس الصبيان ، فإذا ترعرع كان الأدب شعاره من غير تعلم ، والحياء لباسه من غير ترهيب .

وأقل الرياضة فيه يؤثر كما ينفع المسن الفولاذ ، ولا ينفع الحديد، فإذا عقل واستدل على صانعه ، وعلم لماذا خلق ، ونظر بماذا خوطب ، وإلى أين يصير ، وما المراد منه ، شمر عن ساق وساق ، فيطلعه العلم على حقائق الأمور ، فيرى أن أفضل الأشياء ما يقربه من خالقه ، ثم يرى أن أقرب ما يقرب به العلم والعمل ، فيجتهد فى إكمالها على غاية ما يطيق منهما بدنه ، وينهض النية والعزيمة بحمل الباقى .

وأنت ترى خلقاً يقتصرون على بعض فنون العلم ، فهذا مع النحو

(١) جنة : السترة : يقال «**الصوم جنة**» وقاية من الشهوات وينبغى أن يتحلى بالحذر . (لسان العرب : جن)

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٥١

جميع عمره ، وهذا مع الحديث طول دهره ، وهو يرى أن كل العلم مقصود ، غير أنه لما علم أن العمر لا يسع الكل ، أخذ ما يحتاج إليه من الكل زاداً لمسيره، ونهض للعمل بمقتضاه ، فتراه ينتهب العمر خوف أن يذهب ، وما نال المراد ، ولا يضيع لحظة فى غير مهم ، وينافس نفسه فى زمان المطعم والنوم لعلمه بقصر المدة ، كما قال الشاعر :

فاقضوا مآربكم عجالاً أعماركم سفر من الأسفار
إنماوتراكضا خيل السباق وبادروا أن تسترد فإنهن عوارى [1]

فهو أبداً يجتهد فى عمارة وقته ، ويقهر هواه لإصلاح أمره ، ويقطع من العلم مهمه ، فقلبه مشغول عن اللهو بتصحيح قصده ، وجوارحه مقبلة بالجد على طاعة ربه ، وقد اقتنع بما رزقه الله عن منن خلقه ، وعف عن أموالهم حفظاً لعرضه فسادهم لغناه عنهم ، وأزال فسادهم بوعظه ؛ فإن عاملهم فبالإنصاف لم يأخذ عليهم بفضله ،وإن استشاروه اجتهد فى نصحهم على أنه مشغول عن الكل بنفسه متأهب للنقلة ، همه جمع رحله يؤدى إلى كل لحظة فرضها من الحراسة بقوى لربه، ويستظهر بكثرة الزاد لعلمه طول شوطه .

ثم يجتهد فى تهذيب العلم فى حياته ليحيى به أثره بعد موته ، وقد زهد فى الدنيا ، ولا يتناول إلا قوت وقته ، فإن فسح لنفسه فى مباح فمراده تقوية جمله على حمله ، ثم لم يزل به عرفان خالقه ، حتى دعاه إلى حبه ، فانصب الصب ، وانخرط فى سلكه ، فهو بين الخلق بجسمه ، وعند الخالق بقلبه .

أولئك ريحان الله فى أرضه نفوس أنفاس المريدين باستنشاق ريح أحدهم وبلفظه ويفوح نشر صدقهم بعد دفن راجلهم فى لحده ، وقد ألبست قبرهم هيبة تخبر عن كل بقدره ، وإذا ذكرت أعمالهم يقوى بها المريد فى طريق صبره ، والمتقون فى فلك القيامة نجم ، وهم كشمسه أو كبدره ، رزقنا الله وفاقهم ، ووهب لنا لحاقهم ، وألبسنا أخلاقهم بسعة فضله ؛ إنه سميع قريب من عبده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

* * *

(١) عارى : مفردها العارية : العارة (للشىء المستعار)(لسان العرب : عور) . .

الفهرس